قصيدة «أبو الزهراء» في ذكرى المولد النبوي الكريم

لعلي الجارم – دراسة بلاغية تحليلية

إعـــداد

د. تامر محمد أحمد حجازي

المدرس بقسم البلاغة والنقد

كلية اللغة العربية بإيتاي البارود – جامعة الأزهر الشريف

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

مُقَدِّمَة

الحمدُ لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاةُ والسلامُ على نبي الهدى ورحمة الله للعالمين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين ومن تبِعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

وبعدُ،،،

فهذه قصيدةٌ غراء لشاعرِ العروبةِ «علي الجارم» سماها «أبو الزهراء» جادت بها قريحة الشاعر في ذكرى مولد النبي ﷺ تدفقت في ثناياها مشاعِرُ الحب المحمدي من قبل الشاعر لرسولِ الله ﷺ.

وقد آثرتُ اختيارها بالدراسة البلاغية والتحليل، لكونها أولًا تحمل عبر أبياتها أريج العطر المحمدي، وعبق الطيب النبوي المبارك فحسبُها أنها في مدح خير البرية ﷺ أردنا بذلك أن نضع لبنة مباركة في هذا الميدان نستلهم بها شفاعته ﷺ ونستجلب بها رضاه.

ولأنها ثانيًا اشتملت على كثيرٍ من الصور البلاغية الرائعة في علم البيان، ووسائل النظم المتعددة في علم المعاني ولقطاتٍ من ألوان البديع.

وقد جاءت هذه الدراسة المتواضعة في مقدمةٍ وتمهيدٍ ودراسةٍ بلاغية تحليلية للقصيدة.

أما المقدمة فذكرت فيها أسباب اختيار الموضوع، ومنهج البحث وخطته.

وأما التمهيدُ فقد اشتمل على محورين:

* **المحور الأول**: **التعريف بالشاعر**.

* **المحور الثاني**: **بين يدي القصيدة**.

ثم ذكرت القصيدة كاملة ثم تناولتها بالتحليل البلاغي من خلال تقسيمها إلى عشرة أفكار، أضع كل فكرة تحت عنوان يطابق مضمونها.

ثم جاءت الخاتمةُ وذكرت فيها أبرز النتائج التي أسفر عنها البحثُ، ثم ذيلت البحث بثبتٍ للمصادر والمراجع وفهرسٍ للموضوعات.

وقد سرتُ في هذه الدراسة على المنهجِ التحليلي الشامل لألوان البلاغة داخل كل بيت.

واللهَ أسألُ أن يكون هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجعله في ميزان حسناتي، وحسناتِ والديَّ رحمهما الله تعالى، وأن يرزقنا به جميعًا شفاعة المصطفى ﷺ يوم يقوم الناسُ لرب العالمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

تمهيد

ويشتمل على محورين:

* **المحور الأول: التعريف بالشاعر.**

* **المحور الثاني: بين يدي القصيدة.**

المحور الأول

التعريف بالشاعر

وُلِدَ الشاعِرُ «علي الجارم» بمدينة رشيد عام ١٨٨١م ونال دراسته الأولية وحفظ القرآن ببلدته، ثم انتقل إلى الأزهر لينهل من علومه العديدة على أيدي أساتذة أجلاء مثل الشيخ محمد عبده، والشيخ عبد العزيز جاويش، ثم التحق بدار العلوم حتى تخرج فيها، وكان ترتيبه الأول على أقرانه، فأوفد في بعثة إلى إنجلترا عام ١٩٠٨م ومكث بها أربع سنوات، ثم عاد إلى الوطن عام ١٩١٢م حيث عمل مفتشًا للغة العربية بوزارة المعارف، ثم كبيرًا لمفتشي اللغة العربية وعضوًا بمجمع اللغة العربية منذ إنشائه، ثم عميدًا لدار العلوم حتى بلغ سن الستين عام ١٩٤٢م وتوفى في ٨ فبراير ١٩٤٩م.[١]

فشاعرنا قد نشأ نشأةً دينية متأثرًا بدراسته في الأزهر الشريف، وحفظه كتاب الله ﷻ في سنٍ مبكرة، واطّلع على علومِ الغرب ومعارفه حين سافر إلى إنجلترا فجمع في ثقافته بين الأصالة والحداثة.

---

(١) انظر التعريف بالشاعر في بداية ديوانه: ديوان علي الجارم: ١/ ٥ – دار الشروق.

وقد تأصلت في أسرة الجارم صفاتُ أهل رشيد عامة من النشاط والـذكاء وحـسن التدبير والفكاهة والمرح والمغامرة، فوق ما لها من نسب شريف، إذ هي متـصلة النـسب بالحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما. (١)

ولاشك أن هذه العوامل جميعها تضافرت لتشكل لنا شاعرًا مثقفًا متنوع المعـارف، فهو لم يكن شاعرًا فحسب، وإنما كان عالمًا باللغة ومعلمًا لها سواءٌ في مراحـل الـنشءِ أم في مراحل التعليم الجامعي، وقد كان لُغويًا نحْويًا، وكـان في شـعره يجمـعُ بـين حداثـة المحافظة وأصالة التجديد وهو شاعر العروبة والإسلام وهو المفكر والأديب. (٢)

لقد أدرك الجارم – رحمه الله – آخر القرن التاسع عـشر تلميـذًا في المعاهـد الأوليـة والأزهر، والاحتلالُ البريطانيُّ يوطِّدُ أركانه ويبسُطُ سلطانه، ثم اسـتقبل أوائـل القـرن العشرين طالبًا ومدرسًا بدار العلوم، والنزاعُ قائمٌ بين مصر والاحتلال، والحربُ العالميةُ الأولى تغيِّرُ مصائر الشعوب، ثم اتصل بالقصر والحياة العامة في مصر وغيرها شـاعرًا ملحوظ المكانة، متأثرًا بما يجري حوله حتى دخل بذلك تاريخ الحياة الأدبية. (٣)

وقد تعددت الأغراض الشعرية في ديـوان الـشاعر بـين المـدح والرثـاء والوصـف والغزل والإسلاميات وغيرها، وكان الشاعر معنيًا بالعروبة معتزًا بهـا تنـاول في شـعره قضية فلسطين التي بدأت عام ١٩٤٨م «فهو شاعِرٌ غنائيٌّ بتغنى عواطفه، وهـو شـاعِرٌ ملكيٌّ متصلٌ بالقصر، وهو شاعِرٌ رسميٌّ يقول في المواقف الحكومية، وهو شاعرٌ قوميٌّ يتناول الشئون الوطنية، وهو شاعرٌ عربيٌّ يتصل ببلاد الشرق العربي: حوادثه، ومؤتمراته،

(١) الجارم الشاعر: عـصره – حياتـه – شـعره، أحمـد الـشايب: ١٩ – مكتبـة النهـضة المصرية – الطبعة الأولى – ١٩٦٧م.
(٢) الجارم في عيون الأدباء د/ أحمـد عـلي الجـارم: ٣٣، ١٢٧، ٢٠٥ – الـدار المـصرية اللبنانية.
(٣) الجارم الشاعر: أحمد الشايب: ١٧

ورجاله، كما يتناول بعض الشئون العامة في العالم فحلَّ بذلك محل شوقي وحافظ، وقد شاركه في بعض ذلك بعضُ الشعراء، ولكن الجارم كان أبعد صيتًا، وأوسع مجالًا، لنصاعة أسلوبه، وجمال موسيقاه، وجودة إلقائه، ثم توفر له مع ذلك اجتهاده أن يتخذ معانيه من الواقع فلا يلجأ إلى المعاني العامة دائمًا». (١)

لقد كانت العاطفة الدينية قوية عند علي الجارم، واعتزازه وفخره بانتمائه لدينه وأمته وعروبته ملأ عليه حياته، وفاضت مشاعره بحب رسول الله ﷺ لاسيما في ذكرى مولده المبارك، فأنشأ يبث أريج عطره المبارك نسماتٍ طيبةً في سماء الزمان، فكانت تلك القصيدةُ «أبو الزهراء» والتي هي موضوع هذا البحث.

(١) السابق: ٤٧

المحور الثاني

بين يدي القصيدة: «أبو الزهراء»

بادئ ذي بدء إذا أردنا أن نلقي نظرةً سريعةً على إسلاميات الجارم، التي تُعدُّ هذه القصيدةُ واحدة منها فإننا نراها – كما يقول الأستاذ/ أحمد الشايب:

«شائعةً في بابي القوميات والعروبة، ولكنه أنشأ قصيدتين مستقلتين في هذا الباب، وقد أدار معاني هذا الباب على شخصية رسول الله ﷺ وعدالة الإسلام وسعة أفقه وعموم رسالته، وكان يُجوِّدُ هنا لنشأته الدينية وغيرته الإسلامية، واتصال نسبه بنسب الأسرة النبوية، وانغماره في هذه الشعوب المسلمة، وصحة عقيدته، وحبه الرسول عليه الصلاة والسلام». (١)

وبهذا الارتباط الوثيق بين العروبة والإسلام كان هتاف «الجارم» بالعروبة هتاف العربي المسلم الذي يلوذ بدينه إذا هبت العواصف وترامت الأعاصير. (٢)

والقصيدتان اللتان مدح الشاعر بهما رسول الله ﷺ جاءت إحداهما في صدر الجزء الأول من ديوان الشاعر، وهي قصيدة «أبو الزهراء» التي هي موضوع هذا البحث، ومطلعُها: (٣)

أطلّت على سُحبِ الظلامِ ذُكاءُ : وفُجِّرَ من صخرِ التنُوفةِ مَاءُ

وجاءت الثانية في صدر الجزء الثاني من الديوان وعنوانها: «محمد رسول الله»

---

(١) الجارم الشاعر – أحمد الشايب: ٧٦، ٧٧.

(٢) من مقال: شاعر العروبة: علي الجارم وخمسون عامًا على رحيله بقلم/ خليل الجيزاوي انظر [الجارم في عيون الأدباء: ٤١٠، ٤١١].

(٣) ديوان علي الجارم: ١/ ١٧.

ومطلعُها: [1]

تحيـةُ نـاءٍ مـن شـذا المـسكِ أطيـبُ : ومـن قطـراتِ المُـزْنِ أصـفى وأعـذبُ

ولعل الجارم تأثر في هذا الباب بأستاذه «شوقي» صاحب «نهج البردة» و «الهمزية» وغيرهما، والبائية من الروائع التي يُتغنى بها الآن. [2]

ونعود إلى قصيدتنا موضوع الدراسة «أبو الزهراء»، تلك التـي جـادت بهـا قريحـة الشاعر في ذكرى مولد النبي ﷺ عام ١٩٤٨م، ومعنى ذلك أنها جاءت في أخريات حياة الشاعر قبل موته بعام، فاكتمل لها من أسباب التجويد والإتقـان عوامـل شـتى أبرزهـا نضج شاعرية الشاعر ثم قوة عاطفة الحب المحمدي لاسيما في ذكـرى مولـده والـشاعر يلملم أوراقه من الدنيا ليستعد للقاء الله.

وقد جاءت القصيدةُ في أربع وستين بيتًا على حرف الهمزة تحدث فيها الشاعِرُ عـن ابتهاج الدنيا بمولدِ الحبيب حتى تبـسم ثغـرُ الـصبح، وتـولى زمـن الأوثـان، ونافـست الأرضُ السماء.

ثم انطلق يشدو بمجد العروبة التالد مبينًا سماتِ دعوة رسول الله ﷺ وكيف أنه ردَّ الحياة إلى العرب وأنقذهم من غياهب الأوهام والخرافات وتحجر العقول.

ثم بين سمات النبي ﷺ وفضائله وأخلاقه وحسن بيانه، واتخذ من مدحتـه لرسـول الله وسيلة إلى ربه لعله يزيح الغمة عن كاهل العرب والمسلمين.

وأخيرًا يعتذرُ إلى رسول الله ﷺ عن تقصير بيانه في إبراز صـفاته الخُلقيـة الرفيعـة، ويلتمس من الله بمدحه لرسوله ﷺ وانتمائه إلى نسبه المبارك أن يحظى بشفاعة المـصطفى

(١) ديوان علي الجارم: ٢/ ٢٨١.
(٢) الجارم الشاعر: أحمد الشايب: ٧٦، ٧٧.

ﷺ وأن ينال رضاهُ.

وقد قمت بتقسيم هذه القصيدة إلى عشرة أفكار، انتظمت كُلُّ فكرة منها مجموعة من المعاني المترابطة، وعرضتُ أبيات كل فكرة تحت عنوان خاص، ثم شرعت في التحليل البلاغي للأبيات.

وها أنا ذا أُقَدِّمُ القصيدة بين يديك أيُّها القارئُ الكريم كاملة ثم أبدأ في الدراسة البلاغية والتحليل مستلهمًا الرشد والتوفيق من ربي، ومتنسمًا نفحات الطيب المحمدي، والمسك النبوي، تفوح في آفاق الدنيا من حولي، تحدوني الثقة والأمل والرجاء في أن أنال شفاعة المصطفى ﷺ يوم لا ينفعُ مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، فمن الله العونُ وعليه التكلان.

قصيدة «أبو الزهراء»

في ذكرى المولد النبوي الكريم

يقول علي الجارم: (١)

أطلّت على سُحْبِ الظلامِ ذُكاءُ : وفُجِّرَ من صخرِ التنُوفةِ مَاءُ
وخُبِّرت الأوثانُ أنَّ زمانَها : تولَّى ، وراحَ الجهلُ والجهلاءُ
فما سجدت إلاّ لذي العرشِ جبهةٌ : ولم يَرتفعْ إلاّ إليه دُعَاءُ
تبسَّم ثغرُ الصبحِ عن مولدِ الهُدى : فللأرضِ إشراقٌ به وزُهاءُ
وعادت به الصحراءُ وهي جديبة : عليها من الدينِ الجديد رُوَاءُ
ونافست الأرضُ السماءَ بكوكبٍ : وضِيء المُحيَّا ما حَوَتْه سماءُ
له الحق والإيمانُ بالله هالة : وفي كلِّ أجواءِ العقولِ فَضاءُ
تألّق في الدنيا يُزيح ظلامَها : فزال عمىً من حولهِ وعَماءُ
كلامٌ هو السحرُ المُبين وإن يكن : له ألفُ مثل الكلام وَبَاءُ
عجيبٌ من الأميِّ علمُ وحكمةٌ : تضاءَل عن مرماهُما العُلماءُ
ومن يَصطفِ الرحمنُ فالكونُ عبدهُ : ودُهمُ الليالي أينَ سارَ إماءُ
نبيَّ الهدى قد حرَّق الأنفسَ الصدَى : ونحن لفيضٍ من يديك ظِمَاءُ
أفِضْها علينا نفحَةً هاشميةً : يُلَمُّ بها جُرحٌ ويبرأُ دَاءُ
فليس لنا إلاّ رِضَاكَ وسيلةٌ : وليس لنا إلاّ جِمَاكَ رَجاءُ

(١) ديوان علي الجارم: ١٧-٢٠.

حننَّا إلى مجدِ العروبةِ سامقاً : وما نحنُ في ساحاتِه غُرباءُ
زمان لواء العُربِ يُزهى بقومه : وما طالَه في العالمين لِواءُ
زمان لنا فوق الممالكِ دولةٌ : وفي الدهر حكمٌ نافِذٌ وقضاء
يُنادي جريء الأصغريْن بدعوةٍ : أكبَّ لها الأصنامُ والزُعماءُ
دعاهم لربٍ واحدٍ جلَّ شأنه : له الأمرُ يولى الأمرَ كيف يَشاءُ
دعاهم إلى دينٍ من النورِ والهُدىَ : سَماحٌ ورفقٌ شاملٌ ووفَاءُ
دعاهم إلى نبذِ الفخارِ وأنهم : أمامَ إله العالمينَ سَواءُ
دعاهم إلى أن ينهضوا بِعُفاتهم : كِراماً فطاحَ الفقرُ والفقراءُ
دعاهم إلى أن يفتحوا القلبَ كي ترى : بصيرتُه ما يُبصر البُصراءُ
دعاهم إلى القرآنِ نوراً وحكمةً : وفيه لأدواءِ الصدورِ شِفاءُ
دعاهم إلى أن يهزموا الشركَ طاغياً : تسيلُ نفوسٌ حوله ودِماءُ
دعاهم إلى أن يبْنُوا المُلكَ راسخاً : له العدلُ أسٌّ والطموحُ بناءُ
دعاهم إلى أن الفَتى صُنْعُ نَفْسِهِ : وليس له من قومه شُفعاءُ
دعاهم إلى أن يملكوا الأرضَ عَنوةً : مساميحَ لا كِبرٌ ولا خُيلاءُ
فلبّاه من عُليَا مَعدٍ غضافِرٌ : كماةٌ إذا اشْتدَّ الوغَى شُهداءُ
أشِدَّاءُ ما باهى الجهادُ بمثلهم : وهم بينهم في أمرِهِم رُحماءُ
أساءوا إلى الأسيافِ حتى تحطَّمت : وما مَرّةً للمستجيرِ أساءوا
وقد حملوا أرواحَهُمْ في أكفِّهم : وليس لهم إلاّ الخلود جَزاءُ
إذا حكموا في أمّةٍ لان حكمُهم : فما هي أنعامٌ ولا هي شَاءُ

فهل تعلم الصحراء أنَّ رعاءَها : مُحماةٌ بآفاق البلاد رُعَاءُ
وأنهمُ إن زاولوا الحكمَ سَاسةٌ : وإن أرسلوا أَحكَامهم فُقهاءُ
وردّ إلى العُرْب الحَياة وقد مضى : عليهم زمانٌ والأمامُ وراءُ
حجابٌ طوى الأحدَاثَ والناس دونهم : فأظهر ما تجلو العيون خَفاءُ
بنت أممٌ صرحَ الحضارةِ حولهم : وأقْنعهم إبلٌ لهم وحُداءُ
عُقولٌ من الأحجارِ هامت بمثلها : وكلٌّ بَكيمٍ للبكيمِ كِفاءُ
فكم كان للرومانِ والفرسِ صولةً : وهمْ في بوادي أرضهم سُجناءُ
عِرَاكٌ وأحقادٌ يشبّ أوارها : جحيماً وكِبرٌ أجْوَفٌ وغَباءُ
عجبتُ لأمرِ القومِ يحمونَ ناقةً : وساداتهم من أجْلِها قُتلاءُ
بدا في دُجى الصحراء نورُ محمدٍ : وجلجلَ في الصحراء منهُ نِداءُ
نبيُ به ازدانت أباطِحُ مكةٍ : وعزَّ بهِ ثَوْرٌ وتاه حِرَاءُ
لقد شربوا من منهل الدين نَغبةً : مطهرةً فالظامئون رِوَاءُ
وقد لمحوا من نور طه شُعاعةً : فكل ظلامٍ في الوجود ضِياءُ
نبيٌّ من الطُهرِ المصفّى نجاره : سماحة نفسٍ حُرّةٍ وصَفاءُ
وصبرٌ على اللأواءِ ما لانَ عُودهُ : ولا مَسَّهُ في المعضلاتِ عَناءُ
وزهدٌ له الدنيا جناح بعوضة : وكل الذي تحت الهباءِ هَباءُ
تراه لدى المحراب نُسكاً وخشيةً : وتلقاه في الميدانِ وهو مَضَاءُ
إذا صالَ لم يترك مَصالاً لصائل : وإن قَال ألقت سمعَها البُلغَاءُ
كلامٌ من اللهّ المهيمن روحُه : ومن حُللِ الفُصحى عليه رداءُ

كــلامٌ أرادتـــه المقاويـــلُ فـــالتوى : عليهـــا، وضـــلَّت طُرقَـــه الحُكـــاءُ
فيـــا رب هيِّـــئ للرشـــادِ ســـبيلَنَا : إذا جَـــار خَطـــبٌ أو ألمّ بَـــلاءُ
ونصراً وهدياً إن طغـى السـيلُ جارفـاً : وفـاضَ بـما يحـوى الإنـاء إنَـاءُ
نناجيـكَ هـذي رايـة العُـربِ فاحمِهـا : فمـن حولهـا أجنـادُكَ البُسَلاءُ
رميْنـا بكـفٍّ أنـت سـدّدت رميهـا : فـما طـاشَ سـهمٌ أو أخـلّ رِمَـاءُ
أعِزْنَـا بحـق المـصطفَى منـك قـوّةً : فلـيس لغـيرِ الأقويـاء بَقـاءُ
وأسـبغْ علينـا درعَ لطْفِـك إنّهـا : لنـا في قتـامِ الحادثـاتِ وِقـاءُ
إليـك أبـا الزهـراء سـارت مـواكبي : مواكـبُ شـعرٍ سـاقهن حَيـاءُ
وأنّـى لمـثلي أنْ يُـصوّر لمحـةً : كَبَـادُون أدنـى وصـفها الـشُّعراءُ
ولكنهـا جهـدُ المحـبِ فهـل لهـا : بقُدسِـك مـن حـظ القبـولِ لِقـاءُ
ولي نـسبٌ يُنمـى لبيتـكَ صـانني : وصـانته منِّـي عِـزّةٌ وإبـاءُ
عليـك سـلامُ اللهِ مـاذَرّ شـارِقٌ : ومـا عطَّـر الـدنيا عليـكَ ثنـاء

* * * * * * *

قصيدة «أبو الزهراء»
دراسة بلاغية تحليلية

الفكرةُ الأولى
إشراقُ نور رسول الله ﷺ على الدنيا
[الأبيات من ١-٨]

يقول الشاعر:

أطلّت على سُحبِ الظلامِ ذُكاءُ : وفُجِّرَ من صخرِ التنُوفةِ مَاءُ
وخُبِّرت الأوثانُ أنَّ زمانَها : تولى، وراحَ الجهلُ والجهلاءُ
فما سجدت إلاّ لذي العرشِ جبهةٌ : ولم يَرتفعْ إلاّ إليه دُعَاءُ
تبسم ثغرُ الصبحِ عن مولدِ الهُدى : فللأرضِ إشراقٌ به وزُهاءُ
وعادت به الصحراءُ وهي جديبة : عليها من الدينِ الجديد رُوَاءُ
ونافست الأرضُ السماءَ بكوكبٍ : وضِيء المُحيَّا ما حَوَتْه سماءُ
له الحق والإيمانُ باللهّ هالة : وفي كلِّ أجواءِ العقولِ فَضاءُ
تألّق في الدنيا يُزيح ظلامَها : فزال عمىً من حولهِ وعَماءُ

* * * * *

*** التحليل البلاغيُ:**

ابتدأ الشاعر قصيدته بتصوير هذه الطلعة البهية والإشراقة المحمدية حين ولد رسول الله ﷺ فكان كالشمس التي بددت ظلام الوجود، وكالماء الذي أجرى الحياة في

عروق الكائنات، يقول: (١)

أطلّت على سُحبِ الظلامِ ذُكاءُ : وفُجِّرَ من صخرِ التنُوفةِ مَاءُ

وأولُ ما يطالعنا في هذا البيت من وسائل التصوير البياني الرائع أن الشاعر هنا استعان في سبيل إبراز معناه باستعارتين تمثيليتين:

* الأولى في قوله: أطلت على سُحب الظلام ذُكاءُ.

والذُكاءُ: هو الشمسُ وهو مشتقٌ من ذكت النارُ تذكو أي اشتد لهيبها واشتعلت.(٢)

فقد شبه الشاعرُ هنا هيئة النبي ﷺ حين خرج إلى الحياة وجاء بهديه المبارك الذي أزال به ضلال الشرك وتحجُّرَ العقول بهيئة الشمس المشرقة التي انتشر شعاعها وسط سُحبٍ متراكمةٍ من الظلام والغيوم فبددت هذا الظلام وحولته نورًا ساطعًا، ثم استعار الهيئة الثانية للأولى على سبيل الاستعارة التمثيلية.

والاستعارةُ هنا تشير إلى أن ميلاد النبي ﷺ كان يمثل إشراق فجر جديد سطعت فيه شموسُ المعرفة والعلم والعدل والإنسانية بكل معانيها إنه عهدٌ جديدٌ اكتست فيه الدنيا ثوب الحياة والنماء وشعرت بالدفء وأحست بانقشاع غياهب الظلام.

وما أجمل تصوير الشاعر واختياره لهذا الجو المفعم بالقتامة والسوداوية: «سُحب – الظلام» ليمثل به حياة العرب في الجاهلية ثم سرعان ما ينقشع هذا الظلام ويتبدد وسط تلك الصورة المشرقة الزاهية: «أطلت – ذُكاء» ليتحول الظلام إلى نورٍ والموتُ إلى حياة.

* أما الاستعارة التمثيلية الثانية فجاءت في قوله: «وفُجِّرَ من صخرِ التنُوفةِ مَاءُ»

فقد شبه حال النبي ﷺ حين بُعِثَ وسط عقول متحجرة، وقلوبٍ ميتة، وبيئةٍ عقيمةٍ لا تُثمر، فبث فيها روح الحياة، وأمدَّها بروافد النماء بما جاء به من هدي مبارك وشريعةٍ غرَّاء بهيئة الماء الصافي الرقراق الذي فُجِّر وسط صخور متراكبة في بيئةٍ صحراويةٍ قاحلةٍ

(١) ديوان علي الجارم: ١٧

(٢) لسان العرب لابن منظور: ذكا – دار الحديث – القاهرة ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣م.

مجدبة، فحولها إلى واحة خضراء، نمت ثمارها وتفتحت أغصانها حتى اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.

ثم استعار الهيئة الثانية للأولى على سبيل الاستعارة التمثيلية.

وما أحسن بناء الفعل للمجهول «فُجِّرَ» حيث يوحي بالمفاجأة والبغتة والقدرة الغالبة، واختيار هذا اللفظ يوحي بالتدفق والكثرة والانتشار، وكأنه ﷺ كان للحياة بمثابة النهر المتدفق الفيَّاض، واختيار كلمة «صخْر»، والصخرة هي الحجرُ العظيمُ الصُلب. (١)

يوحي بتحجر عقول الجاهليين وصلابة رءوسهم في الباطل والعناد وما يترتب على ذلك من صعوبة التعامل معهم، والتَّنُّوفة: القفرُ من الأرض والمراد بها الصحراء. (٢)

إن الماء هو مصدرُ الحياة للإنسان والشمسُ هي مصدرُ الضياء والدفء ولا حياة بدونهما وتشتد حاجة الإنسان إليهما كلما افتقدهما وهكذا كانت حياة العرب في الجاهلية مجدبةً مظلمةً فجاءهم ﷺ بهديه المبارك وأمدهم بوسائل الحياة.

وبعد أن زينَّ الشاعر مطلع قصيدته بهاتين الاستعارتين التي بين من خلالهما تدفق الحيوية إلى العالم بمولد الحبيب، بيَّن الإنذار الحاسم للأوثان بالزوال والانهيار وبانتهاء زمن الجهل والجهلاء، يقول:

وخُـــبِّرت الأوثـــانُ أنَّ زمانَهـــا : تـــولَّى ، وراحَ الجهـــلُ والجهـــلاءُ

وقد جاء البيت موصولًا بسابقه للتوسط بين الكمالين حيث اتفقت الجملتان في الخبرية، والشاعر هنا ينتقل بعد تصوير مشهد نوراني انساب إلى الحياة، إلى تصوير مشهد انهيار الظلمة وانتهاء عهد الوثنية بمولد الحبيب، وقد عبر عن ذلك بالاستعارة المكنية في قوله: «وخُبِّرت الأوثانُ» فشبه الأوثان بإنسانٍ ثم حذفه ودلَّ عليه بلازمة وهو «خُبِّرتْ» فالأوثانُ لا تعقلُ ولا تسمع ولا تجيب، لكنه نزلها منزلة من يسمع النداء

(١) اللسان: صخَر.
(٢) اللسان: تنف.

ويجيب، وإثبات هذا اللازم للمشبه استعارة تخييلية قرينة المكنية.

والاستعارة المكنيةُ ميدانٌ واسعٌ للتخييل والتصوير حيث ترى الشعراء يسبحون بخيالهم أو يسبح بهم الخيال فيخلعون على الأشياء أوصافًا ليست لها ليحققوا بذلك مقاصدَ وأهدافًا يرمون إلى تحقيقها. (١)

وكان مضمون هذا الخبر المؤلم للأوثان: «أنَّ زمانَها تولَّى» فقد انتهى عصرُها ليبدأ عهدُ التوحيد، وهنا يظهرُ المجازُ العقليُّ في إسناد التولي إلى الزمان والعلاقة الزمانية وهو يشير إلى انتهاءِ عصر الظلام وبداية عهد النور.

وإذا كان زمانُ الأوثان نفسُه قد تولَّى، فما بالُك بالأوثان! لاشك أنها لملمت أوراقها وغادرت بلا رجعةٍ، وهذا ما قد كان، ثم عاد إلى الاستعارة المكنية مرةً أخرى في قوله: «وراحَ الجهلُ والجهلاءُ».

والرواحُ: نقيض الصباح فهو العشيُّ أو السيرُ بالعشيّ. (٢)

فشبه الجهل بإنسانٍ وحذفه ثم دلَّ عليه بلازمه وهو الرواحُ، وإثبات هذا اللازم للمشبه استعارة تخييلية قرينة المكنية، بينما إسناد «راح» إلى «الجهلاء» حقيقةٌ، والاستعارةُ المكنية هنا تشير إلى استئصال الجهل من جذوره بمقدم خير البرية ﷺ، وإذا ذهب الجهلُ ذهب الجهلاء.

وانتقاءُ الفعل «راح» وهو يعني السيرَ في وقت العشيِّ يوحي بالغروب، أعني غروب شمس الجهل بلا عودةٍ، كما أنه يتناسبُ معنويًا مع ظلام الجهل.

فالاستعارتان المكنيتان يتوسطهما المجاز العقليُّ تشير جميعُها إلى انتهاء عهد الوثنية وذهابه بلا رجعةٍ، وانقضاء عصور الجهل والظلام ليبدأ ميلاد عهد جديد مشرق بنور رسول الله ﷺ.

---

(١) بين المكنية والتبعية والمجاز العقلي عرض وتحليل وموازنة د/ بسيوني عبد الفتاح فيود: ٣٦ مطبعة الحسين الإسلامية – الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

(٢) اللسان: راح.

ثم بين الشاعر ما حدث للناس بعد مقدمه ﷺ وهو تحول الناس من عبادة الأوثان والعباد إلى عبادة رب العباد يقول: (١)

فما سجدت إلاّ لذي العرشِ جبهةٌ : ولم يَرتفعْ إلاّ إليه دُعَاءُ

وقد عطف البيت على ما قبله بفاء السببية وهي تشير إلى أن ما قبلها سببٌ فيما بعدها حيث كانت بعثته ﷺ سببًا في تحويل مسار الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

وقد عبر عن مراده مستعينًا بالقصر الحقيقي الادعائي، حيث قصر السجود على الله دون سواه وقصر الدعاء عليه سبحانه قصرًا حقيقيًا لعموم النفي فيه لكل ما عدا المقصور عليه، ادعائيًا لكونه غير موافق للواقع؛ حيث يوجد السجود والدعاء لغير الله في كل زمان ومكان.

لكنه هنا يشير إلى بداية عهد التوحيد وانتهاء عصر السجود للأوثان والدعاء لها والتضرع أمامها وتقديم القرابين والتوسُّل وما شاكل ذلك مما كان يفعله الجاهليون.

وطريق القصر هو النفي والاستثناء، وإنما جاء بهذا الطريق لأنه يتحدث عن أمر قد يكون عرضة للإنكار، قال عبد القاهر: «وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو: ما هذا إلا كذا، وإنْ هو إلا كذا، فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه». (٢)

فقضية التعميم في تحول الناس جميعًا إلى عبادة الله بعد عبادة الأوثان مبنيةٌ على المبالغة، لكنها مبالغة صادقة أحسَّ بها الشاعر من خلال هذا التحول الطارئ المفاجئ في حياة العرب، ولذلك فإن استعمال النفي والاستثناء هنا لا يرجع فقط إلى المخاطب وإنكاره، وإنما يرجع إلى إحساس الشاعر بعموم خبره انطلاقًا من عموم نفعه ﷺ الذي غير مجرى التاريخ والأحداث.

---

(١) الديوان: ١٧

(٢) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني: ٣٣٢ بتحقيق محمود محمد شاكر – مطبعة المدني ط ثالثة ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢م.

وتنكير المسند إليه في قوله: «جبهةٌ» و «دُعاءُ» يؤكد هذا العموم الذي أحس به الشاعر، ولا حرج على شاعرنا أن ينقل هذا الإحساس النفسي المسيطر عليه وهو يتحدث عن ميلاد خير البشر هكذا بهذا التعميم وإن كان مخالفًا للواقع إلا أننا نقبله ونسلم لشاعرنا به.

ثم بين الشاعر ابتهاج الزمان والمكان بمولد الحبيب ﷺ يقول: (١)

تبسم ثغرُ الصبحِ عن مولدِ الهُدى : فللأرضِ إشراقٌ به وزُهاءُ

وقد جاء البيت مفصولًا عما قبله لشبه كمال الاتصال حيث أثار السابق سؤالًا فحواه: لم تحول السجود والدعاء لله؟ فقيل: لأن الصبحَ تبسم بمولد الحبيب ﷺ ففصل عنه كما يفصل الجواب عن السؤال.

والزُهاءُ: الزهوُ وهو الكِبرُ والتيه والفخرُ والعظمة. (٢)

فقد شبه الشاعر الصبح بفتاةٍ حسناء ذات ثغر جميل وحذف المشبه به ودلَّ عليه بلازمه وهو «ثغر» على سبيل الاستعارة المكنية، وإثبات هذا اللازم للمشبه استعارة تخييلية قرينة المكنية.

والاستعارة هنا تشير إلى إشراق فجر جديد بمولد النبي ﷺ حتى كأن الصبح له ثغرٌ يتبسم ويميل طربًا وابتهاجًا.

وإذا كان الزمانُ قد سعد به فإنَّ المكان كذلك: «فللأرضِ إشراقٌ به وزُهاءُ».

فأسند الإشراق للأرضِ وهو في الأصل إنما يكون للشمس مثلًا على سبيل المجاز العقلي لعلاقة المكانية، ليبرز عموم الفرحة والسعادة التي عمت الكون كله.

وأسند الزُهاءَ كذلك وهو الكبر والتيه والفخر والعظمة إلى الأرض على سبيل المجاز العقلي كذلك لعلاقة المكانية، والفخر إنما يكون للإنسان، وهذا الإسنادُ يبين

(١) الديوان: ١٧
(٢) اللسان: زها.

اهتزاز الأرض تيهًا وفخرًا وتعاليًا بقدوم خير البشر عليها.

وعادت به الصحراءُ وهي جديبة : عليها من الدينِ الجديد رُوَاءُ [1]

وقد وصل البيت بالذي قبله للتوسط بين الكمالين حيث اتفقا في الخبرية لفظًا ومعنىً مع ما بينهما من تناسب في المعنى.

والرُّواءُ: المنظرُ الحسنُ، والرَّواءُ بالفتح والمد: الماءُ الكثير، وقيل العذبُ الذي فيه للواردين رِيٌّ [2]

وجديبةٌ: من الجَدْبِ وهو القحْطُ، والجدْبةُ: الأرضُ التي ليس بها قليلٌ ولا كثيرٌ ولا مرتعٌ ولا كلأ. [3]

والمعنى: أن الصحراءَ العربيةَ بعد أن كانت قحطًا محلًا: تحوَّلت بقدوم النبي ﷺ إلى أرضٍ خصيبةٍ ذات منظر حسن يستهوى قلوب الواردين.

والشاعر هنا يوظف المجاز لخدمة معناه، ولفظ: «عادت من العَوْدِ، يوحي بالتحوُّل والتغيُّر، ولم يقل الناسُ ولا العربُ وإنما اختار الصحراء ليشير إلى ما كانت عليه من جدْبٍ وقحطٍ وهو ما تؤكده جملة الحال «وهي جديبةٌ» حيث استمرت على تلك الحال رِدحًا من الزمان جدباء قحطاءَ لا مكان فيها لزرعٍ أو كلأٍ أو ماء.

ونوعُ المجاز هنا استعارةٌ تمثيلية، حيث شبه هيئة شبه الجزيرة العربية وأهلها وما كانت عليه من ضلالٍ وجهل وعقم في التفكير، فجاءهم النبيُّ ﷺ بهديه الكريم فأنار عقولهم وقوَّم سلوكهم، وجمَّل أخلاقهم بهيئة الصحراء وهي جديبة قحطاء ثم ما لبثت أن تدفقت عليها عيون الماء فأزهرت وأثمرت وارتوت ثم استعار الهيئة الثانية للأولى.

وانظر إلى قوله: «عليها من الدينِ الجديد رُوَاءُ» وهو يشير إلى أثرِ هذا الدين الجديد

(١) الديوان: ١٧
(٢) اللسان: روى
(٣) اللسان: جدب

في تحسين هيئة الصحراء وتجميلها بتعاليمه السمحة وأخلاقه الراقية حتى دبت فيها الحياة والنماء من جديد.

ويمكن أن نلحظ طباقًا بين «جديبة» و «رُواءُ» وهو يشير إلى الفرق بين عهدين: عهد مضى بجدبه وقحطه، وعهد بدأ بقدوم الدين الجديد فزيَّن قحط الصحراء وألان شظفها.

ثُمَّ حلَّقَ شاعرنا بخياله الواسع الرحيب فعقد لنا منافسة وهمية بين السماء والأرض، حيثُ نافست الأرضُ السماءَ بقدوم النبي ﷺ بقول: (١)

ونافست الأرضُ السماءَ بكوكبٍ : وضِيء المُحيَّا ما حَوَتْه سماءُ

وقد جاء البيت موصولًا بما قبله للتوسط بين الكمالين فقد اتفقا في الخبرية لفظًا ومعنىً ويعملان معًا في سياقٍ متصل.

فشبَّه الأرضَ والسماء بمتباريين يتنافسان في الميدان وحذف المشبه به ودلَّ عليه بلازمه وهو المنافسة على سبيل الاستعارة المكنية، والاستعارةُ هنا تخلعُ الحياة على الجمادات «فإنك لترى بها الجمادَ حيًّا ناطقًا، والأعجمَ فصيحًا، والأجسامَ الخُرْسَ مبينةً». (٢)

فالأرضُ تنافس السماءَ وتباريها على الرغم من دنُوِّ الأرضِ وعُلُوِّ السماء، فهي تتراقصُ فخرًا وخُيلاء أنْ شرِّفت بنزول النبي ﷺ عليها دون السماء.

ثم استعار الشاعرُ الكوكب في قوله: «بكوكبٍ» للنبي ﷺ استعارة تصريحية، حيث شبهه في وضاءته ونوره بالكوكب ثم استعار له هذا اللفظ تصريحًا.

وتنكير «كوكبٍ» يوحي بعظمته وهوله وتفخيمه، ثم زاده حسًّا آخر بالوضاءة والإشراق فوصفه بالوصف: «وضيءِ المُحيَّا» من الوضاءة وهي الحُسْنُ والبهجة.

---

(١) الديوان: ١٧

(٢) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني: ٤٠ تحقيق: السيد محمد رشيد رضا – المكتبة التوفيقية.

وإنما خصَّ مُحيَّاهُ أي وجهه بالوضاءةِ؛ لأنَّ الوجه هو موطنُ الحسنِ وهو أشرفُ الأعضاءِ وأعلاها قدرًا، وأولُ ما يقع عليه نظر الإنسان، ولقد كان ﷺ صبوح الوجه، وضيء المُحيَّا.

ثم أكَّد فوز الأرضِ بتلك المنافسة قائلًا: «ما حوتْهُ سماءُ» أي ما احتوت عليه ولا شملته سماءٌ أيًّا كان ارتفاعُها أو قدرُها وهي كناية عن تفرُّدِ النبي ﷺ في صفاته وأخلاقه وجماله حيث لم يكن له نظيرٌ في خلق الله في أرضٍ ولا سماء.

لـه الحـق والإيـمانُ بـاللهّ هالـة : وفي كـلِّ أجـواءِ العقـولِ فَـضاءُ [1]

وقد جاء هذا البيت مفصولًا عما قبله لشبه كمال الاتصال حيث أثارت الأبيات السابقة عليه سؤالًا فحواه: لم حدث كل ذلك؟ فقيل: لأنه له الحق والإيمان بالله... ففصل عنه كما يفصل الجواب عن السؤال.

والهالةُ: دارةُ القمر أو دائرةٌ من الضوءِ تحيط بجرمٍ سماوي. [2]

أي أنَّ الحقَّ والإيمانَ هالةٌ له ﷺ أي ضوءٌ له ومصباح ينير طريقه، وله ﷺ في كل ساحات العقول على اختلاف ثقافاتها ومعارفها موقعٌ ومحلٌّ وقبول، وجاء الخبرُ بأسلوب القصر الإضافي أي له وليس لسواه ممن يدَّعون الشرف والسيادة والعدالة وهم يخبطون خبط عشواء، وطريق القصر هو تقديمُ الجار والمجرور «له» على حدِّ قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾. [3]

وهو قصرٌ يفيد اختصاصه ﷺ بالهداية والإرشاد وأعني بالهداية الدلالة على الخير وعلى الصراط المستقيم ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[4]

وقد عرَّف المسند إليه «الحقُّ والإيمانُ» ليشير إلى كمال الحق وتمام الإيمان.

ثم بنى الشطر الثاني على الإيجاز بالحذف: «وفي كل أجواءِ العقولِ فضاءُ».

---

(١) الديوان: ١٧

(٢) اللسان: هال

(٣) من الآية: ١٤ من سورة الرعد.

(٤) من الآية: ٥٢ من سورة الشورى.

أي وله في كل أجواء العقول فضاءٌ، أي مُتَّسَعٌ رحبٌ وقدرةٌ بارعةٌ على الوصول إلى عقول مخاطبيه والنفوذ إلى قلوبهم.

ثم بين شاعرنا انتشار نوره ﷺ في ساحاتِ الكونِ ليزيل ظلامه وعماه يقول: (١)

تـــألَّق في الـــدنيا يُـــزيح ظلامَهـــا : فـــزال عمـــىً مـــن حولـــهِ وعَـــماءُ

وتألَّق: لمع وأضاء، والعمى: ذهابُ البصرِ وقد يراد به ذهاب نظر القلب أي عمى القلب، والعماءُ الضلالة. (٢)

واستعمالُ التألُّق مع النبي ﷺ وهو إنما يكون للنجومِ أو الكواكبِ أو البدورِ وما شاكلها استعارةٌ مكنيةٌ حيث شبهه ﷺ بالكواكب والبدور المتألقة في سماءِ الزمان وحذف المشبه به ودلَّ عليه بلازمه وهو التألق، وإثبات هذا اللازم للمشبه استعارة تخييلية قرينة المكنية.

ووراءها ما يوحي بداءة بانتشار نور النبي ﷺ في آفاق الدنيا وعموم هدايته لكل العالمين ولذلك جاء متعلق الفعل وهو الجار والمجرور بعده «في الدنيا» هكذا بصيغة العموم ليؤكد عموم نفعه ﷺ للدنيا كلها.

ثم قال: «يُزيحُ ظلامها» أي يزيل ظلام الدنيا، فاستعمل الفعل: «يُزيحُ» مع النبي ﷺ، وإزاحةُ الظلام إنما تكون للكواكب والشموس كذلك على سبيل الاستعارة المكنية كسابقتها.

وهي تشير إلى ما حباه به رب العالمين من هداية للبشر وإنارة للكون كله بهديه المبارك ونوره المبين.

ثم جاءت النتيجة: «فزال عمىً من حولهِ وعَماءُ» أي تبدد عمى القلب والضلالة وذهب إلى غير رجعة.

فلقد كانت بعثته ﷺ إيذانًا بانقشاع الظلمة وانهيار دولة الظلم والطغيان والأوثان

(١) الديوان: ١٧
(٢) اللسان: ألق، وعمى.

ليبدأ ميلاد فجر جديد مشرق بنور رسول الله ﷺ.

وتنكير المسند إليه «عمىً وعماء» يشير إلى استفحال الضلالة قبل مجيء الإسلام وانتشار الجهل والطغيان، حتى كان الناسُ يخبطون في جاهلية عمياء لا تبصر للحق طريقًا ولا تعرف للصواب مدخلًا.

وشبه الجملة «من حولهِ» يبين الموطن الذي استفحلت فيه الضلالة وانتشرت وهو شبه الجزيرة العربية آنذاك.

الفكرة الثانية

وصفُ كلامه ﷺ وعلمه وحكمته

[الأبيات من: ٩-١١]

يقول الشاعر:

كـلامٌ هـو الـسحرُ المُبـين وإن يكُـنْ : لـــه ألـــفٌ مثـــل الكـــلام وَبَـــاءُ

عجيـبٌ مـن الأمـيِّ علـمٌ وحكمـةٌ : تـــضاءَل عـــن مرماهُمَـــا العُلـــماءُ

ومن يَصطفِ الرحمنُ فـالكونُ عبـدهُ : ودُهـــمُ الليـــالي أيـــنَ ســـارَ إمـــاءُ

*** التحليل البلاغيُ:**

انتقل الشاعر إلى وصف كلامه ﷺ فشَّبهُهُ بالسحر المبين، يقول: (١)

كـلامٌ هـو الـسحرُ المُبـين وإن يكـن : لـــه ألـــفُ مثـــل الكـــلام وَبَـــاءُ

وقد جاء هذا البيت مفصولًا عما قبله لأنه استئناف كلام جديد فبناه على القطع والاستئناف، وقد بنى الجملة على حذف المسند إليه، اختصارًا واحترازًا عن العبث فهو مفهومٌ من السياقِ والأصلُ: كلامُه كلامٌ كالسحر، وجاء بضمير الفصل «هو» ليفيد القصر والاختصاص، أي أنَّ السحر الحقيقي الذي يذهب بالعقول ويأخذ بالألباب هو كلام رسول الله ﷺ دون سواه مما يُخيَّلُ إلى الناسِ من سحرِ السحرة.

والكلام مبنيٌّ على التشبيه البليغ حيث شبه كلامه ﷺ بالسحر وحذف الوجه والأداة، وحذف الأداة يدل على تمام المطابقة والتوافق بين الطرفين حتى كأن المشبه هو عين المشبه به حقيقة، وهذا يشير إلى أن كلامه ﷺ لا يشبه السحر فحسب وإنما هو

(١) الديوان: ١٧

السحرُ ذاتهُ بما يفعله في عقولِ الناسِ وقلوبهم من تأثير عجيب.

أما حذف الوجه فيدل على التعدد واحتمال وجوهٍ شتَّى فيكون وجه الشبه أوسع وأعم ليشمل هنا التأثير وإثارة العجب والدهشة وسرعة الانقياد والاستيلاء على زمام الأفئدة والقلوب وحسن الإقناع... إلخ.

ثم إنه ليس سحرًا عاديًا وإنما «المبين» أي مع كونه سحرًا فليس وهمًا أو تخييلًا وإنما هو حقيقةٌ واضحةٌ بيِّنةٌ جلية، وصدق الله العظيم حين قال: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ (١)

ولله درُّ الجاحظ حين قال في وصف بيانه ﷺ : «لم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويُسِّر بالتوفيق.. لم تسقط له كلمة، ولا زلت لهُ قدمٌ، ولا بارت له حجة». (٢)

ثم بين الشاعر أن هذا البيان على جلاله وحسنه لم يخرج عن نطاق كلام الناس بحروفه وأصواته فقال: «وإن يكن له ألفُ مثل الكلام وَبَاءُ» فجاء بأداة التشبيه «مثل» ليفيد أن كلامه ﷺ من حيث الحروف والكلمات والأصوات يشبه كلام الناس في ألفه ويائه، لكنه من حيث الجوهر والمضمون يختلف تمام الاختلاف في حسن نظمه وجودة سبكه وكثرة مائه وأثره الخلاب الذي يستولى به على قلوب مخاطبيه.

ثم تعجب الشاعر من علمه وحكمته ﷺ يقول: (٣)

عجيبٌ من الأميِّ علمُ وحكمةٌ : تضاءَل عن مرماهُما العُلماءُ

وقد جاء البيت مفصولًا عما قبله لكمال الاتصال حيث يعد بمثابة التوكيد المعنوي من متبوعه فهو تأكيد لمعنى البيت السابق عليه ففصل عنه كما يفصل التوكيد من

(١) الآيتان: ٣، ٤ من سورة النجم.
(٢) البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: ٢٢١ تحقيق فوزي عطوى دار مصعب -بيروت – ط أولى ١٩٦٨م.
(٣) الديوان: ١٧

متبوعه.

وقد نكَّر المسند «عجيب» وقدَّمه على المسند إليه، فالتنكيرُ للتهويل والتفخيم، والتقديمُ لإثارة الذهن وشدّ الانتباه ولفت النظر إلى هذا الأمر الخارق للعادة في دنيا الناس.

فهو ﷺ أُميٌّ ومع ذلك أوتي الحكمةَ وانثال عليه العلمُ، وحسبُه أنه يتصلُ بوحي السماء.

ثم وصف العلم والحكمة بقوله: «تضاءَل عن مرماهِمَا العُلماءُ» أي تصاغر العلماءُ أمامها، والتضاؤل: التصاغر، والمرمى: مَفْعل، اسم مكان من الرمي، والمراد: أن العلماءَ يتصاغرون أمام تدفق نبع الحكمة الفيَّاض والعلم المحمدي الوفير الذي حباهُ الله ﷻ به.

وفي قوله: «عن مرماها» جعل الشاعرُ للعلم والحكمةِ مَرْمىً أي مكانًا يُرمى فيه فشبَّههُما بشيٍ حسِّيٍّ ثم حذفه ودَلَّ عليه بلازمه وهو الرميُ على سبيل الاستعارة المكنية، وإثبات هذا اللازم للمشبه استعارة تخييلية قرينة المكنية.

وهي تشير إلى إصابة النبي ﷺ الهدف في تبليغ رسالة ربه، بعلمه وحكمته فيخاطب كل إنسانٍ بما يفهمه بوضوح دون تعقيدٍ أو غموض.

ثم بين شاعِرُنا انقياد الحياة كلها لرسول الله ﷺ يقول: (١)

ومن يَصطفِ الرحمنُ فالكونُ عبدهُ : ودُهمُ الليالي أينَ سارَ إماءُ

والواو للاستئناف فهي تفيد استئناف حكم جديد وصياغة حكمة عامة، وقد انتظم البيت في أسلوب الشرط بـ «من» وهي ذاتُ طابعٍ عام تفيد الشمول وإن كان المراد رسول الله ﷺ إلا أنه أراد أن يؤصل هذا المعنى ليكون قاعدة عامة، بحيث متى سار العبدُ ربَّانيًا وقد اصطفاهُ الله ﷻ انقادتْ لهُ كُلُّ العقبات.

واختيار فعل الشرط «يصطفي» من الاصطفاء، يوحي بداءَةً بجواب الشرط

(١) الديوان: ١٧

والفاعل هو «الرحمنُ» هكذا بصفة الرحمة؛ لأنه مقامُ اجتباءٍ واصطفاء.

ثم يجيءُ جوابُ الشرط مقترنًا بالفاء الرابطة ولا نعدمُ فيها رائحة التعقيب إشارةً إلى سرعة الانقياد: «فالكونُ عبدُهُ»، وهذا هو الشقُّ الأول من جواب الشرط، وهو مبنيٌّ على التشبيه البليغ، حيث حذف الوجه والأداة أي الكونُ كعبده في الطواعية والانقياد، وهو يشير إلى خضوع الكون وانقياده للإنسان متى كان مصطفىً من قبل الله ﷻ.

ثم جاء الشق الآخر من جواب الشرط معطوفًا على سابقه، وهو قوله: «ودُهمُ الليالي أين سار إماءُ».

والمقصودُ بـ « دُهم الليالي» الليالي حالكةُ السواد وهي كناية عن صفة هي حوادث الدهر ونوازل الأيام وخطوب الزمان، ووصفها بالدُّهمة لشدتها على النفس وزلزلتها كيان الإنسان.

وهُنا كذلك تشبيهٌ بليغٌ آخر، أي وُدهم الليالي كالإماءِ في الطواعية والانقياد.

وتلاحظ هنا أن حذف الأداة في التشبيهين جعل المشبه عين المشبه به دون إلحاقٍ للأقل بالأكثر.

فالكونُ كله بنوازله وشدائده منقادٌ لرسول الله ﷺ حيث اصطفاهُ اللهُ على سائر العالمين وقد هيأ اللهُ له من الأسباب ما يقود به العالم ويسوسُ به الدنيا كلها وقد كان.

أما حذف الوجه فهو يشير إلى تعدد الوجوه الممكنة بين الكون بشدائده وأهواله وبين العبد والإماء من سرعة الامتثال والانقياد والطواعية وحسن السمع والطاعة وما ينعكس وراء ذلك من ثقته ﷺ بربه وحسن توكله عليه وإسلام أمره إليه.

ثم انظر إلى هذا الاعتراض: «أين سار» هكذا بأداة الاستفهام «أين» التي تفيد هنا تعدُّد الجهاتِ فهو أينما حلَّ حالفه توفيقُ الله، ومتى قابلته شدةٌ أعقبها فرجٌ ورخاء وهكذا كانت سيرةُ رسول الله ﷺ.

الفكرة الثالثة

الشوق إلى الحبيب

[الأبيات من ١٢- ١٤]

يقول الشاعر:

نبيَّ الهدى قد حرَّق الأنفسَ الصدَى : ونحن لفيضٍ من يديك ظِمَاءُ
أفِضْها علينا نفحَةً هاشميةً : يُلَمُّ بها جُرحُ ويبرأُ دَاءُ
فليس لنا إلاّ رِضَاكَ وسيلةٌ : وليس لنا إلاّ جِمَاكَ رَجاءُ

* **التحليل البلاغي**:

ثم أخذ الشاعر في نداء الحبيب ﷺ مبرزًا مدى الشوقِ إليه والتطلع إلى زيارته يقول: (١)

نبيَّ الهدى قد حرَّق الأنفسَ الصدَى : ونحن لفيضٍ من يديك ظِمَاءُ

وقد جاء البيت مفصولًا عما قبله لكمال الانقطاع بلا إيهام حيث اختلفت الجملتان في الخبرية والإنشائية لفظًا ومعنىً فالبيت هنا إنشاء لأنه نداء وما قبله خبر وهذا الفصل يوحي بلهفة الشاعر وشوقه إلى لقاء الحبيب ﷺ.

والنداءُ هنا على حذف أداة النداء: أي يا نبيَّ الهُدى وهو أسلوبٌ إنشائيٌّ يفيد معنى الاستغاثة واللهفة ويبرز مدى الشوق إلى لقاءِ الحبيب ﷺ، وأضافهُ إلى الهدى؛ لأنه من أبرز صفاته ثم جاء مضمون النداءِ وهو قوله: «قد حرَّق الأنفُسَ الصدى».

والصدى: هو شدةُ العطش (٢) والصدى لا يُحرِّقُ ولا يُشعِلُ نارًا فشبَّههُ الشاعرُ

(١) الديوان: ١٧
(٢) اللسان: صدى

بالنار وحذف المشبه به ودلَّ عليه بلازمه وهو «حرَّق» على سبيل الاستعارة المكنية، وإثبات هذا اللازم للمشبه استعارة تخييلية قرينة المكنية.

وقدَّم المفعول به «الأنفس» على الفاعل «الصدى»، ليفيد تلهُّفَ النفوسِ إليه وإقبالها عليه، وزاد المعنى تأكيدًا باستعمال «قد» التي تفيد التحقيق وتضعيف الفعل «حرَّق» على وزن «فعَّل» يفيد المبالغة في الشوق إليه ﷺ.

ثم زاد هذا المعنى تأكيدًا بالاستعارة التمثيلية في قوله: «ونحن لفيضٍ من يديك ظِمَاءُ».

والفيضُ: العطاءُ فقد شبه هيأتنا ونحنُ في أمسِّ الحاجة إلى هدي الحبيب ﷺ والتحلي بأخلاقه الكريمة بهيئة الظمأى الذين يحتاجون الماءَ ويتطلعون إليه بلهفةٍ واشتياقٍ ثم استعار الهيئة الثانية للأولى.

والاستعارة هنا تبرز حاجتنا إلى التمسُّك بأهداب الحبيب حيث إن فيها النجاةَ والفلاحَ فهي فيضُ عطاءٍ لا ينضب وإذا غفلنا عنها أو أهملناها حرَّقنا الظمأُ، وتخبَّطنا في دروب الحياة بلا هادٍ أو دليل.

ثم استنجد برسول الله ﷺ بقول: (١)

أفِضْها علينا نفحَةً هاشميةً : يُلَمُّ بها جُرحُ ويبرأُ دَاءُ

والجملة هنا إنشائية لذا فصلت عن الخبرية السابقة عليها وهي قوله: «ونحن لفيضٍ من يديك ظماء» وسر الفصل هو كمال الانقطاع بلا إيهام.

يُقال: فاض الماءُ والدمعُ ونحوها أي كثر حتى سال على ضفة الوادي، وفاض الماءُ والمطرُ والخيرُ إذا كثرُ وتدفق، وأفاضَ الماءَ على نفسِه، أي أفرغه. (٢)

والشاعِرُ هنا يشبه نفحات النبي ﷺ في العطاءِ المحمدي النوراني والمدد النبوي للأمة بالماء والمطر الغزير الذي يفيضُ ويسيلُ حتى يملأ ضفاف الوادي ثم حذف المشبه

(١) الديوان: ١٨
(٢) اللسان: فيض

به ودلَّ عليه بلازمه وهو «أفِضْها» على سبيل الاستعارة المكنية، وإثبات هذا اللازم للمشبه استعارة تخييلية قرينة المكنية.

والاستعارةُ هنا تشير إلى فيض العطاء المحمدي ونبعه الرقراق الصافي الذي يشبه الماءَ والمطر المنهمر يضمد الجراحَ ويزيل الأحزان ولذلك سمَّاها «نفحة» باسم المرَّة هكذا، يقال: نفح الطيبُ: أرِجَ وفاح.. ونفحهُ بشيء أي أعطاهُ [1] وهي تشير بمعناها اللغوي إلى طيب العطاء المحمدي وانتشار أريجه، وتدلُّ بصيغتها الصرفية «اسم المرَّة» وتنكيرها على أنَّ القليل من عطاءِ رسول الله كثيرٌ ويمدُّ الناس بمدد القوة والفلاح في الدنيا والآخرة.

ونسبها إلى آل البيت فقال: «هاشمية» ليشير إلى عراقة تلك النفحة وتأصلها ونفاسة آل البيت بانتسابهم إلى رسول الله ﷺ.

ثم وصف النفحة بقوله: «يُلَمُّ بها جُرحُ ويبرأُ دَاءُ».

واللمُّ: الجمعُ الكثير الشديد ولمَّ اللهُ شعثه: جمع ما تفرق من أموره وأصلحه. [2]

فاستعار الشاعر هنا الجرح لآلام الأمة وأوجاعها التي كانت تمرُّ بها آنذاك حيث كانت نكبةُ فلسطينَ وغيرها من الأوجاع التي مرت بها الأمة الإسلامية استعارةً تصريحية وهي تشير إلى الأوجاع والآلام التي استشرت في جسد المجتمع العربي الإسلامي آنذاك من تفرُّق وحدتهم واختلاف رايتهم، ولذلك طلب شاعِرُنا من رسول الله ﷺ أن يفيض عليهم من عطائه المحمدي نفحةً هاشمية يلملم بها جراح الأمة ويجمع ما تفرق من شتاتها ويُصلحُ ما تبعثر وفسد من أمرها.

فهذه النفحةُ المحمدية الهاشمية الفيَّاضة سببٌ لجمع وحدة الأمة وعلاجٌ لآلامها وأحزانها وبُرْءٌ لأدوائها: «ويبرأ داءُ» وهو هنا كذلك يستعيرُ الداءَ لتفرُّق الأمة ونكبتها وانهزامها بجامع الألم المضني في كل استعارة تصريحية وهي تشير إلى العذاب الذي حل بالمسلمين في هذا الزمان من تفرقهم وانهزامهم ولا سبيل إلى الوحدة والبرء والنصر

(١) اللسان: نفح
(٢) السابق: لمم

والقوة إلا باستمداد هذا السيل الرقراق والنبع الصافي من عطاءِ رسول الله ﷺ في كل زمانٍ ومكان.

ثم بين شاعِرُنا أن طريق النجاةِ إنما يكون في إتباع النبي ﷺ ورضاه عن أمته يقول: (١)

فليس لنا إلاّ رِضَاكَ وسيلةٌ : وليس لنا إلاّ حِمَاكَ رَجَاءُ

والفاء للتعقيب وهي تشير إلى اللهفة والحاجة إلى رضا رسول الله وشفاعته، والأصلُ: فليس لنا وسيلةٌ إلا رضاك وليس لنا رجاءٌ إلا حماك.. ففي البيت قصران بطريق النفي والاستثناء وكلاهما قصرٌ حقيقيٌ لعموم النفي فيهما وشموله كل ما عدا المقصور عليه على سبيل الحقيقة.

فقد قصر الشاعر وسيلة النجاة على رضا رسول الله ﷺ وقصر رجاء الفلاح على حماه ﷺ قصرًا حقيقيًا وفي هذا إشارةٌ إلى أن رضا رسول الله ﷺ من رضا الله فكلاهما يخرج من مشكاةٍ واحدة.

والمقصود بالحمى هُنا هو شفاعة المصطفى ﷺ لأمته ودفاعه عنهم يوم القيامة، ودعاؤه لهم بالرحمة والمغفرة.

والقصر هنا يحصر مفاتيح النجاة وأسباب الفلاح في اتباع هدي المصطفى ﷺ وذلك يشمل النجاة الدنيوية والأخروية على حدٍ سواء، وينفيهما عما سواه من طرقٍ ملتوية بعيدة عن الله، وذلك يتوافق مع قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ (٢)

ويبرز في هذه المقطوعة من شعر الجارم من عناصر التصوير عنصر الطعم وعنصر الرائحة فما أعذب طعم الهدي، والفيض وشرب الظمأى والنفحة الهاشمية التي يبرأ بها الجرحُ ويداوي المريض والرضا والوسيلة والحمى والرجاء، وما أطيب رائحة ذلك كله

(١) الديوان: ١٨
(٢) من الآية: ١٥٣ من سورة الأنعام

إنها حديقة وارفةٌ غنيـةٌ بأعـذب الطعـوم وأطيـب الـروائح إنهـا جنـةُ المـصطفى ﷺ في الفردوس الأعلى مع الوسيلة والفضيلة والمقام المحمود. (١)

(١) من مقال: الصورة الشعرية عند الجارم بين غادة رشيد وفـارس العربيـة والعروبـة والإسلام للدكتور/ علي علي صبح نقلًا عن كتاب: الجارم في عيون الأدباء: ١٦٥

الفكرة الرابعة

مجدُ العروبة

[الأبيات من ١٥-١٧]

يقول الشاعر:

حننـــا إلى مجـــدِ العروبـــةِ ســـامقاً : ومـــا نحـــنُ في ســـاحاتِه غُربـــاءُ

زمـــان لـــواء العُـــربِ يُزهـــى بقومـــه : ومـــا طالَـــه في العـــالمين لِـــواءُ

زمـــان لنـــا فـــوق الممالـــكِ دولـــةٌ : وفي الـــدهر حكـــمٌ نافِـــذٌ وقـــضاء

* * * * *

*** التحليل البلاغي:**

ثم انتقل الشاعر إلى الحنين إلى مجد العروبة السالف، الذي تغنت الدنيا بعليائه يقول: [١]

حننـــا إلى مجـــدِ العروبـــةِ ســـامقاً : ومـــا نحـــنُ في ســـاحاتِه غُربـــاءُ

وقد جاء البيت مفصولًا عما قبله للقطع والاستئناف حيث أفاد الاستئناف فكرة جديدة، والحنينُ: الشوقُ وتوقانُ النفسِ، وسامقًا: أي مرتفعًا عاليًا يقال: سمق النبتُ والشجرُ والنخلُ: ارتفع وعلا وطال، ونخلةٌ سامقة طويلةٌ جدًا. [٢]

والشاعرُ هنا يبدي حنينه وتوقان نفسه وشوقه إلى مجدِ العروبة التالد الذي ارتفع

(١) الديوان: ١٨

(٢) اللسان: حنن وسمق

وطال كما يرتفعُ النبات.

فالسمْقُ في الأصل يكون لارتفاع النخلة والنبات أي أنه يستعمل مع المحسوسات، فشبه الشاعر هنا ارتفاع مجد العروبة قديمًا وتطاوله بارتفاع النبات وتطاول النخل أي أنه استعمله في المعنويَّات، ثم استعار المعنى الثاني للأول واشتق منه بهذا المعنى «سامقًا» على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية في اسم الفاعل.

وهو بهذا يجسد لنا ما كان عليه العربُ من عز ونصر وتطاول بصورة النخل المتطاول في السماء بشموخه وزهوه وخيلائه وهكذا كان العرب والمسلمون حين ساروا وفق هدي الحبيب ﷺ واتبعوا طريقه وهداه.

فقد ساقه شوقه إلى استرجاع تلك الذكريات المفرحة للقلب فحنَّ إليها وهو يعيش ذكرى مولد الحبيب وتمني رجوع الزمان به أو حلول النفحات المحمدية على العرب، ليستعيدوا بها مجدهم ويسترجعوا بها عزهم.

ثم نعى حال الأمة في عصره فقال: «وما نحن في ساحاته غرباءُ» أي والذي نحن فيه الآن من انتكاسةٍ وانهزامٍ نفسيٍّ، نحن في الأصل غرباءُ عنه، أي لا يليق بأمةِ الحبيب أن يعيشوا تلك الآلام وفيهم هدىُ رسول الله ﷺ وأمامهم كتابُ الله، ثم تألم الشاعرُ على زمان مجد العروبة الغابر يقول: (١)

زمان لواء العُربِ يُزهى بقومه : وما طالَه في العالمين لِواءُ

وقد فصلت الجملة عن قوله: «حننا إلى مجد العروبة» في البيت السابق لشبه كمال الاتصال، حيث أثارت الجملة الأولى سؤالًا في النفس فحواه: وما زمان مجد العروبة؟ فجاء البيت التالي: زمانُ لواءِ العُرب... بمثابة الجواب عنه ففصل عنه كما يفصل الجوابُ عن السؤال.

وقد بنى الكلام هنا على حذف المسند إليه أي هو زمانُ لواءِ العُربِ، والسرُّ في حذفه هو المسارعةُ إلى إحضار الخبر لتصوُّرِ هذا الزمان المجيد.

(١) الديوان: ١٨

وفي قوله: «يُزهى بقومه» استعارةٌ مكنيةٌ، حيث شبه الشاعرُ زمان مجد العروبة بإنسانٍ يفتخر بأمجاد قومه، ويتيهُ بها فخرًا وخُيلاء ثم حذفه ودل عليه بلازمه وهو «يُزهى»، وإثبات هذا اللازم للمشبه استعارة تخييلية قرينة المكنية.

وهي تشير إلى أن الزمان نفسه كان يفتخر بقومه آنذاك حيث توافرت فيهم الصفات العربية النفيسة الأصيلة التي أكدها الإسلام من نخوةٍ ومروءةٍ وشجاعةٍ وفداءٍ للوطنِ والدين.. إلخ، فاستحقوا بذلك أن يفتخر بهم الزمان.

ولواءُ العربِ قد يكون كنايةً عن مجدهم وقد يكون حقيقةً فيحمل على اللواء الحقيقي، وأيًا ما كان الأمر فالاستعارة المكنية في «يُزهى» باقيةٌ على حالها، وحملهُ على الكناية أولى وأوجهُ بدليل قوله: «وما طالهُ في العالمين لواءٌ».

فنفى بهذه الجملة الخبرية المنفية بواسطة «ما» أن يكونَ لواءٌ أيُّ لواءٍ في العالمين قد طال لواءَ العُربِ آنذاك، وتنكيرُ «لواء» للتفخيم والتعظيم والتهويل، أي مهما كانت عظمته فلا يمكن أن يطاول لواءَ العرب.

ثم نزل البيت التالي من هذا البيت بمنزلة التوكيد من متبوعه، يقول: (١)

زمان لنا فوق الممالكِ دولةٌ : وفي الدهر حكمٌ نافِذٌ وقضاء

ففصله عنه لكمال الاتصال، فهو توكيدٌ لأمجاد العروبة ومفاخرها حيث سادت دولتهم كل الممالك وكانوا هم الحاكمين والقضاة في هذا الزمان.

وقد بنى الكلام كذلك على حذف المسند إليه أي: هو زمانٌ للمسارعة بذكر الخبر وإظهارًا للتحسر على فوت هذا الزمان وتوليه.

وقد أفاد تقديم الجار والمجرور «لنا» القصر والاختصاص، أي لنا لا لغيرنا فوق الممالك دولةٌ، وهو يشير إلى اختصاصهم بهذا الشرف دون سواهم، وهو قصرٌ حقيقيٌّ ادعائيٌّ طريقه التقديم.

(١) الديوان: ١٨

ونلحظ الالتفات من الغيبة المعبر عنها بالاسم الظاهر في قوله: «مجد العروبة»، «لواء العرب» في البيتين السابقين إلى التكلم في قوله: «لنا»، وفي هذا الالتفات إظهارٌ للتحسر والأسى الذي شعر به الشاعرُ وملأ عليه حياته وهو ينظر إلى بلاده وعروبته تتمزق وتتولى وتتوالى عليها النكباتُ والهزائم، وعينه الأخرى تنظر إلى ماضيهم العريق الذي سادوا فيه الدنيا كلها وكانوا كما قال: «فوق الممالك دولةٌ».

وقد استعيرت الفوقية هنا من الفوقية الحسية إلى الفرقية المعنوية، وتنكير المسند إليه «دولةٌ» يفيد التعظيم والتهويل من شأن دولة العرب آنذاك.

وقد بين سيادة حكمها وقضائها للدهر كله فقال: «وفي الدهرِ حكمٌ نافذٌ وقضاءُ» والكلام فيه إيجازٌ بالحذف أي لنا حكم نافذ وقضاءٌ نافذٌ في الدهر، ووراءه إشارةٌ إلى سيادة القضاء العربي والإسلامي في تلك العصور وتحاكم من سواهم إليهم.

ثم إنه قضاءٌ نافذ وحكم نافذ لا مجال للتهاون في تنفيذ أحكامه أو الاستهانة به لعدالته ونزاهته فحسبه أنه مؤسَسٌ على أصولِ هدي الحبيب محمد ﷺ.

وقد عطف «قضاء» على «حكم» ليشير بالحكم إلى الدولة وبالقضاء إلى العدالة.

الفكرة الخامسة

فحوى دعوة النبي ﷺ

[الأبيات من ١٨- ٢٨]

يقول الشاعر:

يُنادي جريء الأصغريْن بدعوةٍ : أكبَّ لها الأصنامُ والزُعماءُ

دعاهم لربٍ واحدٍ جلَّ شأنه : له الأمرُ يولى الأمرَ كيف يَشاءُ

دعاهم إلى دينٍ من النورِ والهُدىَ : سَماحٌ ورفقٌ شاملٌ ووفَاءُ

دعاهم إلى نبذ الفخارِ وأنهم : أمامَ إلهِ العالمينَ سَواءُ

دعاهم إلى أن ينهضوا بِعُفاتهم : كِراماً فطاحَ الفقرُ والفقراءُ

دعاهم إلى أن يفتحوا القلبَ كي ترى : بصيرتُه ما يُبصر البُصراءُ

دعاهم إلى القرآنِ نوراً وحكمةً : وفيه لأدواءِ الصدورِ شِفاءُ

دعاهم إلى أن يهزموا الشركَ طاغياً : تسيلُ نفوسٌ حوله ودِماءُ

دعاهم إلى أن يبتَنُوا المُلكَ راسخاً : له العدلُ أسٌّ والطموحُ بناءُ

دعاهم إلى أن الفَتى صُنعْ نَفْسِهِ : وليس له من قومه شُفعاءُ

دعاهم إلى أن يملكوا الأرضَ عَنوةً : ساميحَ لا كِبرٌ ولا خُيلاءُ

******

*** التحليل البلاغي:**

أدلف الشاعر في هذه الفكرة إلى بيان مضمون دعوته ﷺ وكيف أنه خاطب بها العرب مع شدتهم وجرأتهم وجبروتهم يقول: (١)

يُنادي جريء الأصغريْن بدعوةٍ : أكبَّ لها الأصنامُ والزُعماءُ

وقد جاء البيت مفصولًا عما قبله للقطع والاستئناف حيث استأنف بيان فكرة جديدة هي مضمون دعوته ﷺ ، والشاعرُ هنا يلفت النظر إلى جُرأته ﷺ في الحق والدعوة إلى الله ﷻ فهو في سبيلها لا يخشى في الله لومة لائم.

وقد استعمل الشاعر: «جريء الأصغرين» والأصغران هما القلب واللسان (٢) وهو كناية عن العربي، حيث اتصف بجرأة لسانه وشجاعة قلبه ومع ذلك ناداه رسول الله ﷺ وهي كناية عن موصوف ووراءها إيحاءٌ بثقلِ الدعوة وعبء المناداة ومشقتها على النفس حيث إنه ﷺ يواجه عتاةً غلاظ القلوب حِداد الألسنة أصحاب بيانٍ وفصاحةٍ وعقل.

وقد كان الشاعر عن دعوته ﷺ بالفعل «ينادي» وهو مضارع يفيد التجدد والحدوث وهي كناية عن صفة هي الدعوة إلى الله ﷻ ووراءها بيانٌ للمعاناة النفسية التي لاقاها رسول الله ﷺ من هؤلاء الصناديد.

وقد وصف الدعوة بقوله: «أكبَّ لها الأصنام والزعماء» وأكبَّ بمعنى: سقط ونكس، وأكبَّ على الشيءِ أقبل عليه وشُغِل به (٣) والمعنى: سقط الأصنام وسقط الزعماء بدعوة رسول الله ﷺ، والكلام هنا حقيقةٌ لا تجوُّزَ فيها.

والتعبيرُ بالحقيقة هنا أبلغ من المجاز لأنه يتحدث عن واقع مشاهد دوَّنَه التاريخ فقد سقطت الأوثان في حجة الوداع وكسرها رسول الله ﷺ بقضيبٍ معه ودان زعماءُ

---

(١) ، (٢) الديوان: ١٨

(٣) المعجم الوجيز: كبب – إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة – طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم – ١٩٩٩م.

العرب ورؤساؤهم للإسلام، وأصبح الكل في دين الله سواء، لا فرق لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالعمل الصالح.

وإنما قدم «الأصنام» على «الزعماء»؛ لأنَّ سقوطها عندهم أشدُّ وسقوطُ الزعماء والكبار والسادة إنما كان تبعًا لسقوط الأوثان.

ثم بدأ الشاعر يعدد مجالاتِ الدعوة مبتدئًا بالتوحيد يقول: (١)

دعاهم لربٍ واحدٍ جلَّ شأنه : له الأمرُ يولى الأمرَ كيف يَشاءُ

وقد بين هنا أن مضمون رسالته إنما هو توحيد الله ﷻ وعبادته وحده دون سواه من تلك الأصنام التي لا تضرُّ ولا تنفع.

وقد جاء البيت مفصولًا عما قبله لكمال الاتصال فهو بمنزلة بدل البعض من متبوعه وهو قوله السابق: «ينادي جريء الأصغرين لدعوةٍ» حيث بدأ هنا في تفصيل اتجاهات تلك الدعوى ومحاورها.

وأحسن الشاعر حين اختار كلمة «رب» هكذا بتوحيد الربوبية ليبين لهم ربوبيته سبحانه لمن في الأرض ومن في السماء وأنه المتولي أمورهم المدبر شئونهم المتكفل بأرزاقهم.

وقد جاء هذا الاعتراض بتلك الجملة الدعائية «جلَّ شأنُه» أي عظُمَ وتقدَّس التي يقصد بها التعظيم للذات العلية إبرازًا ليُمْنِ دعوته ﷺ وصدقها، وتفنيدًا لمعتقداتهم الباطلة التي يعظمون من خلالها أصنامًا لا تضُرُّ ولا تنفع.

وجاءت جملة القصر: «له الأمر» وهو قصرٌ بطريق تقديم الجار والمجرور «المسند» «لهُ» وهو قصرٌ حقيقيٌ تحقيقيٌ حيث قصر الأمر كله لله وعلى الله دون سواه، فهو المدبر لجميع خلقه سبحانه، وفيها إشارةٌ إلى استحقاقه للعبودية دون سواه، واسميتُها تدُلُّ على الثبوتِ والدوام.

(١) الديوان: ١٨

ولفظ «الأمر» كناية عن تدبير شئون الخلق فهو يشمل الأمر والنهي وكل ما يتعلق بأمر المخلوقات.

ثم بين طلاقة القدرة الإلهية بقوله: «يولي الأمر كيف يشاءُ». وقوله: «يولي» من الولاية قال ابن منظور: «في أسماء الله تعالى: الوليُّ هو الناصر وقيل: المتولي لأمور العالم والخلائق القائم بها، ومن أسمائه ﷻ الوالي وهو مالك الأشياء جميعها المتصرف فيها، قال ابن الأثير: وكأن الولاية تشعر بالتدبير والقدرة والفعل، وما لم يجتمع ذلك فيها لم ينطلق عليه اسم الوالي [1].

فالمعنى اللغوي للولاية – كما ذكر ابنُ منظور – يشير إلى طلاقة قدرته سبحانه في كونه، وتكرارُ الأمرِ استعمالٌ للمُظهرِ في موضع المضمر إذ كان يمكن أن يقال: «يوليه»، والسر البلاغي هو تفخيم القدرة الإلهية وبيان طلاقتها وعدم محدوديتها ولذلك قال: «كيف يشاء» بأداة الاستفهام «كيف» التي أفادت هنا الخيرية والتكثير وتعدد الجهات.

ثم بين الشاعر مظاهر سماحة الدين فقال: [2]

دعاهم إلى دينٍ من النورِ والهُدى : سَماحٌ ورفقٌ شاملٌ ووفَاءُ

وأولُ ملحظ فني هنا هو تعويل الشاعر على التكرار، وضابطه: «أن يكرر المتكلم اللفظة الواحدة لتأكيد الوصف أو المدح أو الذم أو التهويل أو الوعيد». [3]

فقد كرر الشاعر الفعل «دعاهم» عشر مرات في صدر عشرة أبيات متوالية هذا البيت هو الثاني منها والمقام مقام مدحٍ لدعوته ﷺ ووصف لمحاسن وأخلاقيات تلك الدعوة.

(١) اللسان: ولى
(٢) الديوان: ١٨
(٣) تحرير التحبير لابن أبي الإصبع المصري: ٣٧٥ تحقيق الدكتور حفني محمد شرف إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

وتكرار الفعل «دعاهم» أو بالأحرى تكرار الجملة كاملة بفعلها وفاعلها ومفعولها يؤكد ثقل الدعوة والمهمة المنوط بها رسول الله ﷺ وكأنه جرَّد حياته ووهبها كلها للدعوة إلى الله ونشر دينه وبيان قيمه.

ثم إلحاحه ﷺ على دعوة قومه وحرصه على هدايتهم وأمله في نجاتهم من النار ومتعلقات الجملة في كل بيت توحي بشرف المقصد والهدف ونبل الغاية فهو إنما يدعوهم إلى مكارم الأخلاق وسبل النجاة في الدنيا والآخر.

وقد جاء متعلق الفعل هنا وهو الجار والمجرور «إلى دين» مبرزًا لمعالم الدين كله إجمالًا حيث إنه دينٌ يتكون من «النور والهدى».

وهذا يتوافق ضمنيًا مع قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[1]

ثم أخذ يفصل معالم جمال هذا الدين وأخلاقه فقال: «سماحٌ ورفقٌ شاملٌ ووفاءٌ» والكلام هنا مبنيٌ على الاستئناف أي هو سماحٌ ورفقٌ، وحذف المسند إليه لكونه مفهومًا من السياق وللمسارعة بذكر تلك الصفات الأخلاقية الرفيعة.

وكأن مظاهر النور والهدى في هذا الدين تمثلت في تلك الصفات: السماحة والرفق الشامل والوفاء، ونكرها جميعًا لبيان كثرتها وانتشارها في كل تعاليم هذا الدين، ووصف الرفق بالشمولية ليبين رقة ورحمة هذا الدين في كل مجالات الحياة.

دعاهم إلى نبذ الفخارِ وأنهم : أمامَ إلهِ العالمينَ سَواءُ[2]

وقد فصلت الجملة أو البيت عن سابقه وهكذا سائرُ الأبيات العشرة التي تكرر

(١) الآيتان: ١٥، ١٦ من سورة المائدة.
(٢) الديوان: ١٨

فيها لفظ «دعاهم» لكمال الاتصال حيث تعدُّ جميعها بمنزلة يدل البعض من متبوعه من قوله: «دعاهم إلى دين من النور والهدى» يقول الخطيب القزويني في السبب الثاني من أسباب كمال الاتصال: «أن تكون الثانية بدلًا من الأولى والمقتضى للإبدال كونُ الأولى غير وافية بتمام المراد بخلاف الثانية والمقام يقتضي اعتناء بشأنه لنكته ككونه مطلوبًا في نفسه أو فظيعًا أو عجيبًا أو لطيفًا وهو ضربان: أحدهما: أن تُنزل الثانية من الأولى منزلة بدل البعض من متبوعه...». (١)

فقول الشاعر السابق: «دعاهم إلى دين من النور والهدى» إجمالٌ لمحاسن الدين وهذه الجملة: «دعاهم إلى نبذ الفخار» وما يليها تعد تفصيلًا لأخلاقيات الدين، بين في كل واحدةٍ منها جزءًا من حيثيات هذا الهدى والنور، والمقام يقتضي الاعتناء والاهتمام بشأن الدين «والثانيةُ أوفى من الأولى لدلالتها على التفصيل». (٢)

والنبذُ: طرحُكَ الشيءَ من يدك أمامك أو وراءَك ونبذت الشيء إذا ألقيته من يدك ورميته وأبعدته. (٣)

والفِخارُ: هو الفخرُ وهو التمدُّح بالخصال والافتخار وعدُّ القديم وتفاخر القوم: فخر بعضهم على بعضٍ والتفاخر: التعاظم والتكبر. (٤)

فالفِخارُ إذًا معنويٌ، والنبذُ كما بيَّن صاحبُ اللسانِ يستعملُ في المحسوسات، فاستعماله مع الفخار استعارةٌ مكنية؛ حيث شبه الفخار بشيءٍ محسوس منبوذ وحذفه ودل عليه بلازمه وهو «نبذ»، وإثبات هذا اللازم للمشبه استعارة تخييلية قرينة المكنية.

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع للخطيب القزويني: ١٨٦ تحقيق الدكتور/ عبد القادر حسين – مكتبة الآداب.

(٢) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح للشيخ بهاء الدين السبكي: ٣/ ٢٧ تحقيق الدكتور/ خليل إبراهيم خليل. دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ط أولى ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١م.

(٣) اللسان: نبذ.

(٤) اللسان: فخر.

ووراء الاستعارة إشارةٌ إلى طرح هذه الصفة المذمومة وهي التفاخر والخيلاء والتعاظم، حيث كانت سائدة عند العرب فجاء الدين الحنيف فدعاهم إلى نبذها وطرحها جانبًا، والتعامل مع الناس بالتواضع وعدم التعالي، لاسيما: «وأنهم أمام إله العالمين سواءٌ».

والجملة هنا تؤكد مساواة الخلق جميعًا أمام إله العالمين، لا فرق لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح، وهذا ما أكد عليه رسول الله ﷺ في دعوته المباركة، حيث كان الفخار والتعالي والفخر بالأحساب والأنساب صفةً سائدةً لدى العرب في الجاهلية فاستأصلها الإسلامُ وأحلَّ محلها التواضع والمؤاخاة والمساواة.

ثم بيَّن دعوته ﷺ إلى التكافل الاجتماعي بين المسلمين يقول: (١)

دعاهم إلى أن ينهضوا بِعُفاتهم : كِراماً فطاحَ الفقرُ والفقراءُ

والعُفاةُ: طلاب المعروفِ الذين يعفُونك؛ أي يأتونك يطلبون ما عندك، وطاح: أشرف على الهلاك وقيل: هلك وسقط أو ذهب وكذلك إذا تاه في الأرض. (٢)

وفي قوله: «ينهضوا بعُفاتهم» استعارةٌ تمثيلية؛ حيث شبه الشاعر حال من يمُدُّ يده بالعطاءِ للعفاة والسائلين، فيعينهم في معاشهم وأمور حياتهم بحال من يمد يده لإنسانٍ ضعيفٍ وقد كبا على وجهه لينهض به من كبوته ويُقيله من عثرته ثم استعار الحال الثانية للأولى.

والاستعارة هنا تشير إلى ما ينبغي أن يكون عليه المجتمع المسلم من رعاية للفقراء وضرورة إعطائهم ما يغنيهم ويسُدُّ حاجتهم، واختيار لفظ النهوض هنا له مغزىً يتمثل في قوة العزيمة وصدق النية في إخراج الزكاة والصدقة والحرص على ألا يكون في المجتمع المسلم مُتسوِّلٌ أو فقير.

(١) الديوان: ١٨
(٢) اللسان: عفا وطوح

ولكي يبرز الشاعِرُ حرصَ الإسلام على مراعاة الجوانب النفسية لدى الفقراء من عدم إحواجهم إلى الطلب الصريح أو المن عليهم أو أذاهم أتى بهذا التتميم «كرامًا» وهو لونٌ من ألوان الإطناب، وضابطه كما قال الخطيبُ: «أن يُؤتى في كلامٍ لا يوهم خلاف المقصود بفضلةٍ تفيد نكتة كالمبالغة». (١)

فالنكتةُ هنا هي تتميم معنى العطاء بعدم المنِّ والأذى، فكلمة «كرامًا» وهي حالٌ من «العفاة» جاءت تتميمًا ومحاولة من الشاعر لتحسين معناه احتياطًا من أن يتسرب إلى الذهن أن العُفاةَ يأخذون عطاياهم بمذلةٍ أو امتهان وهذا مما لا ينبغي أن يوجد في المجتمع المسلم فهم إنما يأخذون حقًا فرضه الله لهم على الأغنياء وليس تفضلًا من الأغنياء عليهم.

وكانت ثمرةُ تلك الدعوة أن اندثرت معالم الفقر في المجتمع المسلم يقول: «فطاح الفقر والفقراء»

وطاح بمعنى هلك أو سقط وذهب وتاه في الأرض وهو مع الفقر استعارةٌ مكنية، حيث شبه الفقر بإنسانٍ وحذفه ودَلَّ عليه بلازمه وهو «طاح»، وإثبات هذا اللازم للمشبه استعارة تخييلية قرينة المكنية.

وهي هنا تشير إلى اتِّحاء الفقر من المجتمع الإسلامي واندثاره وذهابه بلا عودة وهذا ما ينبغي أن يكون لو طبق هدي الحبيب ﷺ في دعوته للتكافل بين المجتمع.

لكنه مع الفقراء إسنادٌ حقيقي لا تجوُّز فيه وإن كان الشاعر – فيما أرى – غير موفقٍ في هذا التعبير «طاح الفقراء» فهو وإن كان يقصد ذهب الفقراء من المجتمع الإسلامي إلا أنَّ أول ما يتبادر إلى الذهنِ عند سماع «طاح الفقراء» هو هلاكهم مما يعني تهميشهم وعدم الاهتمام بهم وهذا ما يؤدي إلى تناقضٍ في السياق.

والمهم أن الشاعر هنا يقصد أن دعوته ﷺ للتكافل كانت سببًا في تحقيق مبدأ المساواة في الحقوق وانعدام ظاهرة الفقر والتسوُّل واختفاء الفقراء.

---

(١) الإيضاح: ٢٣٨

دعاهم إلى أن يفتحوا القلبَ كي ترى : بصيرتُه ما يُبصر البُصراءُ [1]

والبصيرةُ: عقيدةُ القلب، والفطنة والمعرفة واليقين [2]

وفي البيت استعارتان مكنيَّتان، الأولى في قوله: «يفتحوا القلبَ» حيث شبه القلب بدارٍ لها بابٌ يُفتحُ ويُغلقُ وحذف المشبه به ودل عليه بلازمه وهو الفتح.

والثانيةُ في قوله: «ترى بصيرته» حيث شبه البصيرة وهي الفطنة بالعين الباصرة ثم حذف المشبه به ودل عليه بلازمه وهو «ترى»، وإثبات هذا اللازم للمشبه استعارة تخييلية قرينة المكنية.

والاستعارتان تعملان معًا في سياقٍ واحدٍ متصل من حيث المعنى ووراءَهما إشعارٌ بضرورة تنظيف القلوب وتطهيرها من الأحقاد والضغائن بحيث تصير مصفاة رقراقة تبصر بعقيدتها وفطنتها ما يراه المبصرون من بعيد.

ثم بين دعوة النبي ﷺ أمته إلى التمسك بهدي القرآن الكريم يقول: [3]

دعاهم إلى القرآنِ نوراً وحكمةً : وفيه لأدواءِ الصدورِ شِفاءُ

وهنا يعودُ الشاعرُ إلى النبع الأول من ينابيع العقيدة السليمة ألا وهو القرآن.

والدعوةُ إلى القرآن تقتضي الدعوةَ إلى قراءته وفهمه وتدبره والعمل به لأنه نورٌ وحكمة، أما النور فيقتضي تصحيح المسار في دروب الحياة، بحيث إذا سار المؤمن وَفق هدي القرآن ولم يحِدْ عنه سار في طريق النور.

وأما الحكمةُ فتقتضي وضعَ الشيءِ في موضعه بحيث يصير العبد ربَّانيًا يحيط به التوفيق ويحالفه النجاح في كل أمور الحياة.

---

(١) الديوان: ١٨
(٢) اللسان: بصر
(٣) الديوان: ١٨

وقد بين الشاعر أن في القرآن شفاءً من كل الأمراض وذلك في قوله: «وفيه لأدواءِ الصدور شفاءُ»، وهو في ذلك متأثر بالقرآن الكريم في قوله سبحانه: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] وغير ذلك من آيات الشفاء.

وفي الجملة قصرٌ بطريق تقديم المسند وهو الجار والمجرور «فيه» وهو قصرٌ حقيقيٌ مجازيٌ أو ادعائيٌ حيث إن الشفاء يوجد في القرآن وغيره.

والقصر يؤكد أثر القرآن الكريم في تحقيق الشفاء، والشفاءُ هنا قد يكون معنويًا أو حسيًّا بمعنى أنه يعالج الأمراضَ المعنوية كالحقد والحسد والنفاق والغيرة والكراهية والاضطراب النفسي وغير ذلك من تلك الأمراض، وقد يكون حسيًّا بمعنى أنه شفاءٌ للأمراض العضوية الحسية كما شُفِيَ اللديغُ بفاتحة الكتاب.[2]

وبناءً على ما تقدم فإذا نظرنا إلى الأمراضِ العضوية الحسية، فإن قوله: «لأدواء الصدور» حقيقةٌ؛ لأن المقصود بالأدواءِ جمع داء: الأمراض العضوية، وإنما اختار الصدور لأن الصدر وعاءُ القلبِ المسئول عن حياة الإنسان.

وقد تحمل على الكناية عن كل الأمراض إذ إنه يعالج أمراضَ الصدور وغيرها لكنه ذكر الصدور – كما قلت – لاحتوائها على القلب.

وإذا نظرنا إلى علاج القرآن الكريم للأمراض المعنوية النفسية كالقلق النفسي والتوترِ والحسد.. إلخ، فإن قوله: «لأدواء الصدور» حينئذٍ يكون استعارة تصريحية، حيث شبه ما يصيب الإنسان من نفاقٍ أو حسدٍ أو كراهية وما يشتمل عليه صدره من أمراضٍ معنوية بالداء العضوي الذي يصيب الإنسان واستعار الأدواء لتلك الأمراضِ المعنوية استعارة تصريحية.

وعلى كُلٍ فالجملة تتحمّل المعنيين: الأمراض الحسية العضوية، والأمراض المعنوية والنفسية، وهذا ما يؤكده القرآن نفسه ويؤكده الواقع من خلال الاستشفاء بكتاب الله

(١) من الآية: ٨٢ من سورة الإسراء.
(٢) انظر: الطب النبوي لابن القيم: ١٦٢ تحقيق ناصر النجار مكتبة أولاد الشيخ للتراث.

عز وجل.

دعاهم إلى أن يهزموا الشركَ طاغياً : تسيلُ نفوسٌ حوله ودِماءُ[1]

والشاعر هنا يبين معاناته ﷺ وأصحابه الكرام في سبيل نشر الدين بتشريع الجهاد.

وفي قوله: «يهزموا الشرك» مجازٌ عقلي علاقته المصدرية حيث أوقع الهزيمة على المصدر «الشرك» وأراد يهزموا المشركين أو أهل الشرك، وهزيمة المشركين أو الشرك عمومًا كناية عن الجهاد في سبيل الله.

وتمَّمَ الشاعر معناه بقوله: «طاغيًا» وهو حالٌ من الشرك وفيه توصيفٌ لخُبثه وبيانٌ لسبب محاربته وهو أنه يتصف بالظلم والطغيان سواءٌ كان ظلمًا للنفس أم ظلمًا للآخرين.

وقد بين الشاعر في الشطر الثاني من البيت ما يعانيه المسلمون من إراقة دمائهم وفقدان نفوسهم في سبيل الجهاد في سبيل الله للقضاء على الشرك والمشركين فقال: «تسيلُ نفوسٌ حوله ودِماءُ».

والجملة كناية عن صفة هي التضحية وتقديم المسلمين أنفسهم وأرواحهم لله في سبيل الجهاد حتى يتمكنوا من القضاء على الشرك والمشركين، وهو بذلك يشير إلى عهد الفتوحات الإسلامية وقبلها غزواتُ النبي ﷺ وأصحابه الكرام من بعده حيث تحملوا عبء نشر هذا الدين في آفاق الدنيا وحاربوا الشرك والمشركين.

وإسناد السيلان للدماءِ حقيقةٌ تُنبئُ عن كثرة الجرحى والقتلى في سبيل الله.

بينما استعماله مع النفوس تجوُّزٌ بالاستعارة المكنية حيث شبه النفوس بالدماء وحذف المشبه به ودلَّ عليه بلازمه وهو «تسيل»، وإثبات هذا اللازم للمشبه استعارة تخييلية قرينة المكنية، ووراءَها إيحاءٌ بكثرة الشهداء الذين قدموا أرواحهم لله مع رسول الله ﷺ إبَّان الفتوحات الإسلامية والغزوات.

(١) الديوان: ١٨

دعـاهم إلى أن يبتَنُـوا المُلـكَ راسـخاً : لـــه العـــدلُ أسٌّ والطمـــوحُ بنـــاءُ (١)

والشاعرُ هنا يبين توازن الإسلام في دعوتـه إلى الـدنيا والآخـرة، فكـما أن الإسـلام يدعو إلى الآخرة ويحث على العمل لها فهو لم يُغفِلْ جانب الدنيا بل دعا أتباعه إلى ملـك الدنيا كلها بالعدالة والأمل والعمل.

وقد عبر الشاعر عن ذلك بقوله: «دعاهم إلى أن يبتَنُـوا المُلـكَ راسـخًا» وفي قولـه: «يبتنوا الملك» استعارةٌ مكنية؛ حيث شبه الملك بالبناءِ أو الدار أو البيت الذي يقـام عـلى أساسٍ ثم حذف المشبه به ودل عليه بلازمه وهو «يبتنوا»، وإثبات هـذا الـلازم للمـشبه استعارة تخييلية قرينة المكنية.

والاستعارة هنا تشير إلى دعوته ﷺ إلى عمارة الدنيا والحث على امتلاكها وأن نكون فيها سادة قادة بالعدل والمساواة في الحقوق وعدم ظلـم الآخـرين، ومـضارعية الفعـل: «يبتنوا» دليلٌ على ضرورة تجدد الهمة كلما انساب إلى النفس داعي الفتور.

وزيادة التاء في الفعل «يبتنوا» تدل على زيـادة المعنـى فهـي تـشير إلى المعانـاة التـي سيواجهها المسلمون في عمارة الكـون وملـك الـدنيا وسياسـتها بالعدالـة والإخـلاص والمساواة.

ثم جاء بتلك الحال: «راسخًا» وهو حالٌ من الملك، وفيها كـذلك اسـتعارةٌ مكنيـة كسابقتها، حيث شبه الملك بالجبل وحذفه ودل عليـه بلازمـه وهـو الرسـوخ، وإثبـات هـذا اللازم للمشبه استعارة تخييلية قرينة المكنية.

وهي تشير إلى استقرار الأمر للمسلمين وتمكنهم من الملك وسـيادتهم العـالم كُلَّـه، لكنها سيادةٌ قائمةٌ على جناحين هما: «العدل والطموح» يقول: «له العدلُ أسٌّ والطموحُ بناءُ».

والأُسُّ: هو مبتدأ كل شيءٍ وأصل البناء (٢) والمراد أن تقـام دولـتهم وملكهـم عـلى

(١) الديوان: ١٨
(٢) اللسان: أسس.

أساسٍ قويمٍ من العدل يحدوهم الأملُ في التقدم والبناء.

وقد قصر الشاعر هنا العدل على الملك الصحيح الثابت الراسخ أي أن العدل أساسٌ له لا لغيره؛ «لهُ العدلُ أسٌّ» وهو يشير بذلك إلى أن أساسَ إقامة الممالك إنما يكون على العدل.

وفي قوله: «له العدلُ أسٌّ والطموحُ بناءُ» تشبيهان بليغان؛ حيث شبه العدل للملك بالأساس والطموح له بالبناء، أي لهُ العدلُ كالأساس والطموح كالبناء.

وحذف الأداة ليشير إلى اتفاق الطرفين في الصفات، فكأن العدل أساسٌ حقيقيٌ وأصل للملك، والطموح وهو الأمل والتفاؤل والتطلع للأحسن كالبناء لهذا الملك أو هو بناءٌ لهُ على الحقيقة.

وحذف وجه الشبه يشير إلى تعدد الوجوه الممكنة بينهما من حيث القوة والتماسك والرسوخ وغير ذلك.

والبيتُ كله دعوةٌ صريحةٌ للمسلمين إلى أن يكونوا سادةً للدنيا كلها يسوسونها بالعدلِ والأملِ والرجاء.

ثم بين الشاعرُ دعوة الحبيب ﷺ أتباعه إلى الاعتماد على النفس بعد الاعتماد على الله، والقضاء على اتكاء الفتى على مآثرِ قومه وأجداده يقول: (١)

دعاهم إلى أن الفَتى صُنْعُ نَفْسِهِ : وليس له من قومه شُفعاءُ

فالمسلمُ ينبغي أن يكون نسيجَ وحده، ولا يقول: كان أبي وجدي وإنما يقول: ها أناذا!.

فقوله: «أن الفَتى صُنْعُ نَفْسِهِ» كناية عن الاعتماد على الذات وعدم تملق الآخرين من الكبار والسادة أو التزلف إليهم رغبة في الصعود بل على الفتى أن يبني نفسه بنفسه وألا يعتمد في صعوده ونجاحه على أحدٍ إلا على الله.

(١) الديوان: ١٨.

وهي دعوةٌ تغرسُ الثقة في النفس بعد الثقة في الله، وتنزع من نفس المسلم بوادر الكسل والاسترخاء اعتمادًا على الآخرين، وهي مُغلَّفةٌ بدعوةٍ قويةٍ إلى العمل والجد والاجتهاد ليبني الفتى نفسه.

وانظر إلى كلمة «الفتى» بما فيها من معاني الفتوة وما تفيضُ به من نضارة الشباب وهممهم العالية، وخصهم هنا لأنهم الفئة المستهدفة في المجتمع والتي ينبني عليها كثيرٌ من تحقيق الآمال، والمنوط بهم بناءُ الأمة والنهوض بها.

ثم بين دعوة النبي ﷺ إلى انتفاء مبدأ الوساطة فقال: «وليس له من قومه شُفعاءُ» والجملة كذلك كناية عن عدم الوساطة واعتماد الإنسان على نفسه ووراءها غرسٌ للثقة في النفس والاعتماد عليها بعد الاعتماد والتوكل على الله عز وجل.

وإذا تحقق هذا المبدأ الذي دعا إليه المصطفى ﷺ في حياتنا انتفت مظاهر الفساد والإفساد ووضع كل إنسان في مكانه الصحيح بلا وساطة أو محسوبية فلا يكون فلانٌ في منصب كذا؛ لأنه ابنُ فلان، وإنما لأنهُ الأكفأ والأحق والأجدر.

ثم إنها دعوةٌ صريحةٌ إلى أن يبني الإنسانُ نفسه بنفسه وألَّا يعيش عالة على أبيه أو غيره وألا يكون كلًّا على أحدٍ فيشعر بالمسئولية ويواجه صعاب الحياة ويتحرك فيها بصبرٍ وأناة، وإذا واجهته مشكلةٌ لا يغرقُ في بحرٍ من الحيرة والتيه والتردد والقلق وإنما يواجهها بعقل رزين وتفكير سليم وقلب جسور ولا يستعين بأحدٍ إلا بالله لأنه «صُنعُ نفسه».

ثم إن هذه المسئولية الفردية ليست مقصورةً على أعمال الدنيا وإنما هي كذلك في العمل الأخروي فلا ينفع المرءَ سوى عمله ولا قيمة لحسب ولا نسب ولا جاه ولا مال: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾[1]

ثم عاد الشاعر إلى دعوة النبي ﷺ أتباعه إلى ملك الدنيا بالسماحة والتواضع لله

(١) الآية: ١٠١ من سورة المؤمنون.

يقول: (١)

دعاهم إلى أن يملكوا الأرضَ عَنوةً : مساميحَ لا كِبرٌ ولا خُيلاءُ

والعَنوَةُ: القهرُ يُقال: أخذه عَنوةً أي عن طاعة وغير طاعة وفُتحت هذه البلدةُ عنوة، أي فُتحت بالقتال قوتل أهلها حتى غلبوا عليها، وفُتحت البلدةُ الأخرى صُلحًا أي لم يُغلبُوا ولكن صُولحوا على خَرْجٍ يُؤدونه. (٢)

فالعَنوةُ على هذا هي القهرُ والغلبةُ والإذلالُ والتسليمُ والطاعة.

والنبيُّ ﷺ لم يدعُ أصحابه إلى تملُّكِ الأرض عنوة أي عن قهر وغلبة وإنما دعاهم إلى السماحة والعفو وأمرهم وهم يقاتلون الأعداء ألا يقتلوا طفلًا ولا امرأةً ولا شيخًا كبيرًا ولا يقطعوا شجرًا ولا يُهلكوا حرثًا ولا نسلًا وألا يحرقوا، وهذه كلها مبادئٌ محمديةٌ راقيةٌ تتنافى مع العنوة والقهر ولذلك لم يوفق الشاعر – في رأيي- في اختيار تلك الكلمة، فأساء من حيث أراد أن يمدح، ولذلك هو نفسُه أحسَّ بهذا فأتى بهذا الاحتراس: «مساميحَ لا كبرٌ ولا خُيلاءُ».

أي حالة كونهم متسامحين لا متكبرين ولا مختالين ولكنه لم يحالفه التوفيقُ في هذا؛ لأنه أظهر بيته حينئذٍ كالمتناقض، فكيف يمتلكون الأرضَ بالقهرِ والغلبة والإذلال والإذعان وهي معاني الظلم والتعدي ويكونون في هذا مساميح؟!.

ربما يقصدُ الشاعر بالعنوة هنا شدة التمكن والرسوخ في الملك والقوة البالغة – وهذا ما أظنه – لكن المعنى اللغوي لكلمة «عَنوة» - كما سبق – أضفى على البيت من أول نظرةٍ هالةً من الظلم والتعدي مما أبعده عن مقصده ومغزاه.

وبناءً على هذا التأويل الأخير يمكن أن تستعمل «عنوة» هنا في معنى التمكن والاقتدار والقوة تشبيهًا لهذه المعاني بالقهر والغلبة والإذلال التي هي معنى «العنوة» بجامع السيطرة والاستحواذ على الشيء في كل ثم استعيرت العنوة لمعنى التمكن والقوة

(١) الديوان: ١٨.
(٢) اللسان: عنا.

استعارة تصريحية.

وحينئذٍ تأتي كلمة «مساميح» لتؤكد على حسن معناه، وهي حالٌ يتبعها قوله: «لا كبرٌ ولا خيلاء». أي أنهم جمعوا في ملكهم بين القوة والتمكن مع السماحة والتواضع وعدم الكبر أو الاختيال.

الفكرة السادسة

وصف أصحاب النبي ﷺ

[الأبيات من ٢٩ - ٣٥]

يقول الشاعر:

فلبّــاه مــن عُليَــا مَعــدٍّ غــضافِرٌ : كــماةٌ إذا اشْــتدَّ الــوغَى شُــهداءُ

أشِــدَّاءُ مــا بــاهى الجهــادُ بمــثلهم : وهــم بيــنهم في أمــرهِم رُحمــاءُ

أساءوا إلى الأسيافِ حتى تحطَّمت : ومــا مَــرّةً للمــستجيرِ أســاءوا

وقــد حملــوا أرواحَهُــمْ في أكفِّهــم : ولــيس لهــم إلاّ الخلــود جَــزاءُ

إذا حكمــوا في أمَّــةٍ لان حكمُهــم : فــما هــي أنعــامٌ ولا هــي شَــاءُ

فهــل تعلــم الــصحراء أنَّ رعاءَهــا : حُمــاةٌ بآفــاق الــبلاد رُعَــاءُ

وأنهــمُ إن زاولــوا الحكــمَ سَاســةٌ : وإن أرســلوا أَحكَــامهم فُقهــاءُ

* * * * * *

*** التحليل البلاغي:**

بعد أن بين الشاعر فحوى دعوته ﷺ ومضمونها ذكر وصف المستجيبين له ﷺ من الصحابة الكرام فقال: [1]

(١) الديوان: ١٨.

فلبّــاه مــن عُليَــا مَعــدٍّ غــضافِرٌ : كــماةٌ إذا اشْــتدَّ الــوغَى شُــهداءُ

وقد جاء الشاعر هنا بفاء التعقيب التي تفيد سرعة وقوع الإجابة عقب دعوته ﷺ، واختيار لفظ التلبية وهي الإجابةُ بعد الإجابة يوحي بالسمع والطاعة.

وذلك مستفادٌ من المعنى اللغوي للفعل «لبَّى» إذ هو يدور حول الإقامة على الطاعة والمداومة على الشيء وعدم مفارقته، والقرب منه والانقياد له وانشراح الصدر واتساع القلب لقبول دعوة الداعي مع القصد له والإقبال عليه ومحبته والإخلاص له. (١)

وهذا يتوافق مع حال الصحابة رضي الله عنهم في إجابتهم دعوة النبي ﷺ بحبٍ وإقبالٍ وانقياد.

ومَعَدٌّ: حيٌّ من أحياء العرب وهو جدُّ رسول الله ﷺ كما ذكره ابنُ هشام: (٢) وهو من أشراف العرب وقد استعار الشاعرُ لفظ «غضافر» وهم الأسود الشجعان (٣) للصحابة رضوانُ الله تعالى عليهم استعارة تصريحية أصلية مشبهًا لهم بالأسود في جرأتهم وجسارتهم وقهرهم الأعداء.

واختيار هذا الاسم «غضافر» من أسماء الأسد يشير بصوته وجرسه وقوته إلى تأصل الشجاعة فيهم وانطباعهم على الإقدام وجمعه يدل على تضافر جهودهم في ميدان الدعوة والجهاد.

وهو هنا يذكر أن هؤلاء الأصحاب كانوا من أشراف العرب: «من عُليا معدٍ» وهذا الحكم على سبيل التغليب إذ كان من أتباع النبي ﷺ كثيرٌ من الضعفاء.

لكنهم في كل الأحوال أسودٌ ثم إنهم «كماةٌ» والكماةٌ: جمعُ كميٍّ، والكميُّ: اللابسُ

(١) من دقائق البيان النبوي في صيغة التلبية أ.د/ رفعت إسماعيل السوداني: ١٦٤-١٦٦ مجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود – العدد التاسع عشر ١٤٢٣ هـ-٢٠٠٣م.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٧ دار الفجر للتراث ط ثانية ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤.

(٣) انظر: الديوان: ١٨.

السلاح وقيل: هو الشجاع المُقدِمُ الجريء كان عليه سلاحٌ أو لم يكن، وقيل: الذي لا يحيدُ عن قِرنه ولا يروغُ.

والوغى: الحربُ، أو غمغمةُ الأبطال في حومة الحرب. (١)

واشتدادُ الوغى: كناية عن اشتعال الحرب وقوتها ثم وصفهم بالشهادة في سبيل الله: «شهداءُ».

فالأصحابُ الكرام ﷺ سارعوا بإجابة دعوة الحبيب ﷺ واستجابوا لندائه وهم ليسوا خوَّارين أو ضُعفاء وإنما هم غضافرةٌ كماةٌ وأبطالٌ في الحروب يخوضون ساحاتِ الوغى كالأسود.

ثم وصفهم بالشدة على الكفار والرحمة فيما بينهم يقول: (٢)

أشِّداء ما باهى الجهادُ بمثلهم : وهم بينهم في أمرِهم رُحماءُ

وهو هنا يقتبسُ من كتاب الله ﷻ وذلك في قوله سبحانه: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ (٣)

والاقتباسُ: هو أن يُضمَّن الكلامُ شيئًا من القرآن أو الحديث لا على أنه منه. (٤)

والاقتباسُ من القرآن هنا يعطي المعنى الذي يريده الشاعرُ ثقلًا ومصداقيةً وواقعية.

وقد بني الكلام على حذف المسند إليه أي: هم أشداءُ، لأنه مفهومٌ بترهَّلِ الأسلوبِ بذكره وللمسارعة بذكر وصفهم.

ومعنى قوله: «ما باهى الجهادُ بمثلهم» أي ما فاخر الجهادُ بمثلهم، فقد شبه الجهاد بإنسانٍ يفتخر بمآثره ومفاخر قومه ثم حذف المشبه به ودل عليه بلازمه وهو «باهى»

(١) اللسان: كما ووغى.
(٢) الديوان: ١٨.
(٣) من الآية: ٢٩ من سورة الفتح.
(٤) الإيضاح: ٤٦٧.

على سبيل الاستعارة المكنية.

وهي تشير إلى أنَّ الجهاد لم يعرف نظراء في تاريخه الطويل لهؤلاءِ الأبطال، ثم إنهم على الرغم من شدتهم على الكفار متراحمون بينهم يقول: «وهم بينهم في أمرهم رحماءُ».

وهذا الجزءُ من تمام الاقتباس الذي ذكرناه فوصفهم بالرحمة فيما بينهم والتواضع ولين الجانب.

وقد طابق بين «أشداء» و «رحماء» ليفيد بذلك ضراوتهم مع أعدائهم وقسوتهم عليهم ثم لين جانبهم لبعضهم البعض ورحمتهم ورقتهم وتواضعهم وفي ذلك من كمال صفات الإنسانية والرجولة ما فيه.

ثم بين فرط شجاعتهم يقول: (١)

أساءوا إلى الأسيافِ حتى تحّطمت : وما مَرّةً للمستجيرِ أساءوا

والشاعرُ هنا يبين كثرة استعمالهم السيوف في الحروب وهم من جراء ذلك أساءوا إلى الأسياف وحطموها وهو هنا يشبه الأسياف بإنسانٍ ثم يحذف المشبه به ويدُلُّ عليه بلازمه، وهو الإساءة على سبيل الاستعارة المكنية.

ووراءها تجسيمٌ وتشخيصٌ للأسياف بصورة الشخص أو الكائن الحي الذي يُساءُ إليه فيستاءُ وينزعج، ولذلك كانت النتيجة: «حتى تحطمت» وهي كناية عن هلاك سيوفهم من كثرة الحروب. ولفظُ: «تحطمت» يوحي باعوجاجها وتكسُّرها من كثرة الضربات والاصطكاك برءوس الأعداء.

والاستعارة متضافرة مع الكناية تبرز فرط شجاعة الأصحاب الكرام ﷺ أجمعين.

ثم بين مروءتهم ونخوتهم فقال: «وما مَرّةً للمستجيرِ أساءوا» أي وما أساءوا مرة للمستجير وهنا ردٌّ للعجز على الصدر؛ حيث ردَّ «أساءوا» الثانية على «أساءوا» الأولى وكلٌّ منهما له متعلق وهو يشير إلى الجمع بين الشجاعة والنجدة والمروءة في آنٍ واحدٍ

(٤) الديوان: ١٨.

وكذلك الوفاء بالعهد للمستجير.

ودخول النفي «ما» على اسم المرة «مرة» وهو نكرة يَدُلُّ على أصالة الوفاء عندهم.

وقــد حملــوا أرواحَهُــمْ في أكفِّهــم : ولــيس لهــم إلاّ الخلــود جَــزاءُ [1]

وقد وصل البيت بسابقه للتوسط بين الكمالين فكلاهما خبر، وهذا البيت امتدادٌ للمعنى السابق، وفي قوله: «حملوا أرواحَهُمْ في أكفِّهم» استعارة تمثيلية.

حيث شبه الشاعر هنا هيئة صحابة رسول ﷺ وهم يزجُّون بأنفسهم في معمعة الحروب والقتال إعلاءً لكلمة الله واستجابة لأمر رسوله ﷺ بهيئة أناس حملوا أرواحهم في أكفهم وهي هيئةٌ متوهمة واستعدوا للموت متى وأين حلَّ، ثم استعار الهيئة الثانية للأولى.

والاستعارة التمثيلية هنا تشير إلى ثقة الصحابة ﷺ في أقدار الله، فهم يتوجهون للقتال صامدين غير عابئين بالموت ويقدمون أنفسهم لله.

ثم بين الشاعر جزاءهم فقال: «وليس لهم إلا الخلودُ جزاء» فقد قصر جزاءهم على الخلود في الجنة وهو قصرٌ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ فهم وإن كان لهم جزاءاتٌ أخرى غير الخلود كرضا الله والأنس به ورؤيته وغير ذلك إلا أنها في حقيقة أمرها كلها تابعةٌ للخلود.

وطريق القصر هو النفي والاستثناء وهو يشير إلى استحقاقهم هذا الجزاء عن جدارة، وإنما اختاره الشاعرُ بما فيه من قوة وتوكيد ليؤكد على عمق إحساسه هو باستحقاقهم هذا الجزاء «فالتوكيدُ هنا لا يفسره حال المخاطب، وإنما هو خصوصيةٌ تفسر شيئًا في داخل المتكلم ذلك هو إحساسه بهذا المعنى إحساسًا عميقًا، وتعبيره عنه كذلك تعبيرًا عميقًا». [2]

وتأمل عنصر الحركة في الصورة الشعرية عند الجارم وهو يبعث الحياة في الجماد

(١) الديوان: ١٨.

(٢) انظر: دلالات التراكيب دراسة بلاغية د/ محمد محمد أبو موسى: ١٠٧ مكتبة وهبة الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

ويبث الروح في المعاني والمجردات وتلك الحركات السريعة المتواثبة في ميادين القتال حين قال: «فلبّاه من عُليَا مَعدٍ غضافِرٌ» إنها لحركةٌ عنيفةٌ تجدها في التلبية ومن أعلى لا من أسفل، وفي الجهاد الذي لا يعرفُ الراحة وخاصة في الشجعان والشهداء إذا اشتدت الحرب، وفي قوله: «تحطمت» وصيغة المفاعلة في «باهي» وفي حركة المستجير اللاهثة وفي حمل الأرواح على الأكُفِّ وغيرها كثير. (١)

وهي حركاتٌ متواثبة تصور بدقة متناهية – فيما مضى من أبيات صورة الأصحاب الكرام ﷺ وهم يتفانون في الدفاع عن الإسلام بهمةٍ عاليةٍ ونشاطٍ بالغٍ وقلبٍ صدوقٍ جسور.

ثم بين إنسانيتهم وحكمتهم في حكمهم يقول: (٢)

إذا حكموا في أمَّةٍ لان حكمُهم : فما هي أنعامٌ ولا هي شَاءُ

والشاعرُ هنا يبين رأفة ورقة المسلمين في حكمهم ورحمتهم برعاياهم، واختيار «إذا» دون «إن» مثلًا، لأنَّ الأصل في «إذا» أن يكون الشرط فيها مقطوعًا بوقوعه، (٣) فالجزم برحمتهم في حكمهم أمرٌ قطعيٌ لا مجال للشك فيه.

وفي قوله: «لان حكمهم» استعارةٌ مكنية، حيث شبه الحكم بإنسانٍ رحيم وحذفه ودل عليه بلازمه وهو اللين وهي تبرز العدالة والوداعة في حكمهم وتنفي عنه البطش والكبرياء والجبروت فهم إنما يحكمون بشرًا آدميين لهم حقوق الآدمية وليسوا أنعامًا ولا شياه، يقول: «فما هي أنعامٌ ولا هي شاءُ» والكلام هنا على التشبيه البليغ، أي ليسوا كالأنعام وليسوا كالشياه، ووراءه تعريضٌ بالمستبدين والطغاة الذين يعاملون رعاياهم بالظلم والقهر والوحشية التي تتنافى مع قيم وسماحة الإسلام.

---

(١) من مقال: الصورة الشعرية عند الجارم د/ علي صبح نقلًا عن كتاب: الجارم في عيون الأدباء: ١٦٤.

(٢) الديوان: ١٨

(٣) الإيضاح: ١٢١

فهـل تعلـم الـصحراء أنَّ رعاءَهـا : حُمـاةٌ بآفـاق الـبلاد رُعَـاءُ [1]

والفاء أفصحت عن جملة محذوفة أعني: إذا كان الأمر كذلك فهل تعلم الصحراء.....

والرعاءُ: الولاة والمقصود بهم رعاة الغنم، ومعنى رِعاء: حفظةٌ يراعون الحقوق. [2]

وقد جاء البيتُ في صورة الاستفهام والمراد به التقرير، فهو إنما يريد أن يقرر الصحراء بأن رعيان أغنامها وشائها صاروا حكامًا يحمون آفاق الدنيا ويحفظون حقوق البلاد والعباد.

وفي قوله: «فهل تعلم الصحراء» مجازٌ عقليٌ علاقتُه المكانية حيث أسند العلم إلى الصحراء وهي مكانٌ والمراد فهل يعلم أهلها.

ووراءه استنهاضٌ لذاكرة الصحراء، واستحثاثٌ لأهلها أن يعتزوا بتاريخهم العريق.

والرعاءُ الأولى: المراد بها رعاء الغنم والإبل أي رعاة الماشية وفي الثانية الحكام والولاة فبينهما جناسٌ تام.

وهو من المحسنات البديعية اللفظية وضابطُه: «أن يتفق اللفظان حروفًا وعددًا وهيئة وترتيبًا ونوعًا اسمًا أو فعلًا أو حرفًا مع اختلاف المعنى. [3]

وهو يشير إلى الهمة العالية والعزيمة الصادقة التي حوَّلت هؤلاءِ الرعاة إلى حكامٍ وولاة.

ثم إنهم ليسوا ظلمة وإنما هم حماةٌ لحقوق الناس بآفاقِ البلاد، فقوله: «حماةٌ بآفاقِ

(١) الديوان: ١٩
(٢) اللسان: رعا
(٣) القول البديع في علم البديع للشيخ الإمام مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي الحنبلي: ٤ دراسة وتحقيق الدكتور: عوض بن معيوض بن زويد الجميعي جامعة أم القرى – مكة المكرمة ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩م.

البلاد رعاء» كناية عن عدالتهم دون تمييز لأحدٍ على أحدٍ ولا لبلدٍ على بلد.

ثم بين الشاعر أنهم مع ذلك ساسةٌ خبراءُ وفقهاءُ علماءُ يقول: (١)

وأنهمُ إن زاولوا الحكمَ ساسةٌ : وإن أرسلوا أحكامهم فُقهاءُ

والبيت هنا داخلٌ في مضمون العلم المستفهم عنه في البيت السابق في قوله: «فهل تعلمُ الصحراءُ...».

وقد انتظم البيت أسلوبُ الشرطِ بـ «إنْ» في الجملتين «إن زاولو.... إن أرسلوا».

واختيار المزاولة مع الحكم يوحي بالمراس والمران والألفة بينهم وبين الحكم، واختيار الإرسال مع الأحكام يوحي بالدقة والعمق في فهم أحكام الدين مع التمكن والرسوخ.

وجاء جوابُ الشرط مؤكدًا على نبوغهم في المجالين، فهم ساسةٌ حكماءُ إن تولوا أمر العباد، وهم علماء فقهاء إن أرسلوا أحكامهم وفتاواهم.

والتأكيد بأنَّ واسمية الجملة يوحي بتمكنهم ورسوخهم فيما يتعلق بأمر الدنيا والدين.

وحين ننظر نظرة عامة إلى هذه المقطوعة عند الجارم في وصفه لصحابة النبي ﷺ نجد عنصر الشكل قد بدا واضحًا في التصوير الشعري، فها هنا حكومة الإسلام التي تنشر العدل وتقضي على الفساد والظلم، وحضارته الزاهية التي تبدد ظلام الكون، وينقشع أمامها قتام الشر والباطل، تمنح العالم الإسلامي ثقلًا قويًا في حجمها الكبير بين الدول الأخرى، وتتخذ له شكلًا يملأ الأفق وإطارًا ضخمًا واسعًا. (٢)

فهذا العنصر التصويري وهو عنصر الشكل استطاع الشاعر من خلاله أن يبرز قوة دولة الإسلام مشرقةً وضاءةً في سماء الزمان تحيط بها هالاتٌ من حولها من الأمم المستبدة من الظلم والطغيان.

---

(١) الديوان: ١٩

(٢) الصور الشعرية عند الجارم د/ علي صبح نقلًا عن كتاب: الجارم في عيون الأدباء: ١٦٧

الفكرة السابعة

صورة العرب قبل مجيء الإسلام

[الأبيات من ٣٦ – ٤٢]

يقول الشاعر:

وردَّ إلى العُـرْب الحَيـاة وقـد مـضى : علـــيهم زمـــانٌ والأمـــامُ وراءُ

حجـابٌ طـوى الأحـدَاثَ والنـاس دونهـــــــــــــــــــم : فـــأظهر مـــا تجلـــو العيـــون خَفـــاءُ

بنـت أمـمٌ صرحَ الحـضارةِ حـولهم : وأقْـــنعهم إبـــلٌ لهـــم وحُـــداءُ

عُقولٌ مـن الأحجـارِ هامـت بمثلهـا : وكُـــلٌّ بَكـــيمٍ للبكـــيمِ كِفـــاءُ

فكم كان للرومـانِ والفـرسِ صـولةً : وهـــمْ في بـــوادي أرضـــهم سُـــجناءُ

عِـرَاكٌ وأحقــادٌ يــشبّ أوارهـــا : جحـــيماً وكِـــبرٌ أجْـــوَفٌ وغَبـــاءُ

عجبـتُ لأمـرِ القـومِ يحمـونَ ناقـةً : وســـاداتهم مـــن أجْلِهـــا قُـــتلاءُ

* * * * * *

* **التحليل البلاغي**:

بعد أن تحدَّث الشاعِرُ عن وصف أصحاب رسول الله ﷺ عاد لوصف طبيعة العرب قبل الإسلام وكيف ساد فيهم الجهل والتخلف يقول: (١)

(١) الديوان: ١٩

وردَّ إلى العُـرْب الحَيـاة وقـد مـضى : علـــيهم زمـــانٌ والأمـــامُ وراءُ

والشاعرُ هنا يستثمر التصوير البياني في بيان تلك النقلة الحضارية الهائلة في حياة العرب من الموت إلى الحياة ومن الظلام إلى النور.

ففي قوله: «وردَّ إلى العُرْب الحَياة» استعارةٌ تمثيلية؛ حيث شبَّه هيئة العرب قبل الإسلام وهم يعيشون في بحار من الفساد والظلمة فجاءهم رسول الله ﷺ بنور العلم والهدى والإيمان، بهيئة قومٍ أوشكوا على الموت وأحاط بهم الهلاك ثم جاءهم من أنقذهم من الردى وأمدهم بالحياة وأخذ بأيديهم إلى بر الأمان ثم استعار الهيئة الثانية للأولى.

فالنبيُّ ﷺ لا يملك في حقيقة أمره حياةً ولا موتًا إنما الذي يملكها هو الله، ولكنه لما جاء للعرب بمولده المبارك فأنار ظلامهم وأزاح جهلهم وأضاء قلوبهم بل أضاء الدنيا كلها بشريعته الغراء كان ذلك لهم بمثابة الحياة بعد الموت والعلم بعد الجهل والتقدم بعد التخلف، فقد كانوا أمواتًا فجاءهم رسول الله ﷺ بالحياة كما قال ربُّ العزة: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾(١)

وأكَّد الشاعر هذا المعنى بالكناية في قوله: «وقد مضى عليهم زمانٌ والأمامُ وراءُ» وهي كناية عن صفة هي التخلف والرجعية وقلب الحقائق والموازين والعيش على طنين الأوهام والخرافات، فكأنهم جعلوا الأمام خلفًا والخلف أمامًا، ونكسوا الحقائق وبدلوا الفطرة.

وقد أبرز التضاد بين «الأمام ووراء» الفطرة المنتكسة عند العرب في جاهليتهم فبينهما طباق، «وهو لونٌ بديعيٌّ فطريٌّ يشيع في أساليب العامة والخاصة بناءً على ما هو مركوزٌ في الطباع من مقارنةٍ بين الأضداد وموازنةٍ بين المتقابلات فالضد أقربُ خطوراً

(١) من الآية: ١٢٢ من سورة الأنعام.

بالبال عند ذكر ضده». [1]

فهو بين ضعف عقولهم وتشتت أذهانهم وانتكاسَ فطرتهم واستبدالهم الحرام بالحلال والشر بالخير والباطل بالحق والاعوجاج بالاستقامة والرشاد.

ثم بيَّن حياة الظلام التي عاشوا فيها يقول: [2]

حجابٌ طوى الأحدَاثَ والناس دونم : فأظهر ما تجلو العيون خَفاءُ

والبيت يعد بمنزلة التوكيد لقوله: «وقد مضى عليهم زمان والأمام وراء»ولذا فصل عنه لكمال الاتصال فكلاهما يؤكد على ما كان عليه العرب من تخلف وانغلاق.

والمعنى: أن العرب قبل الإسلام احتجبوا عن الحضارة والرُّقي وانغلقت عقولهم وأبصارهم فصاروا حتى وهم يبصرون بعيونهم في عمايةٍ وخفاءٍ وغموضٍ وجهل.

فالشاعر هنا يستعير الحجاب وهو الستر للظلام الذي عاش فيه العرب فحجبهم عن نور الحق وجعلهم ذيلًا للأمم من حولهم كالفرس والروم وهي استعارةٌ تصريحية.

وتنكير «حجابٌ» يوحي بالتهويل من ظلامه وستره، وحذفُ المسند أي عليهم حجابٌ، أو المسند إليه أي هو حجابٌ؛ يوحي بانغماسهم في الحيرة والظلام.

وقوله: «طوى الأحداث والناس...» أي ظلامٌ لفَّ حياة الناس وأحاط بهم وهي كناية عن انعدام وسائل التنوير في المجتمع آنذاك وانتشار العماية والظلام المفرط الذي عم الناس وشمل الأحداث.

ثم قال: «فأظهر ما تجلو العيون خفاءُ»، أي أبرز ما تراه العيون خفاءٌ وهو هنا يقصد بالخفاء الظلام والعماية فاستعاره لهما استعارة تصريحية.

والبيت كله يظهر تخبط العرب في الجاهلية وانغماسهم في الحيرة والجهل والظلام.

---

(١) دراسات منهجية في علم البديع د/ الشحات محمد أبو ستيت: ٥٠ الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

(٢) الديوان: ١٩

ثم بين الشاعر تقدم الأمم من حولهم وبقاءهم يحدون الإبل يقول: (١)

بنت أممٌ صرحَ الحضارةِ حولهم : وأقْنعهم إبلٌ لهم وحُداءُ

وقد جاء البيت مفصولًا عما قبله لكمال الاتصال حيث نزل من سابقه بمنزلة التوكيد من متبوعه فهو يؤكد على تخلف العرب ونهوض الأمم من حولهم.

والشاعر هنا يشبه الحضارة بقصرٍ منيفٍ أو ببنيانٍ مشيد ثم يحذف المشبه به ويدل عليه بلازمه وهو البناء على سبيل الاستعارة المكنية، وإثبات هذا اللازم للمشبه استعارة تخييلية قرينة المكنية.

وهو يقصدُ هنا بالأمم الفرس والروم وحضارتهم التي دوت في الآفاق آنذاك فقد اشتهروا بالتقدم والرقي وسادوا الدنيا في عصور الجاهلية لدى العرب.

ثم يبرز حال العرب في الجاهلية وما كانوا عليه من سذاجة ورتابة وبساطة تعكس عقم التفكير عندهم في الوقت الذي بنت فيه الأمم من حولهم صرح الحضارة يقول: «وأقنعهم إبلُ لهم وحُداءُ».

والحُداءُ: الغناء للإبل وسوقها والجملة كناية عن عدم تطلعهم إلى التقدم وقناعتهم بما كانوا عليه من بساطةٍ وسذاجةٍ وبدائية.

فهم إنما يعيشون مع الإبل يعظمون أمرها ويأكلون لحومها ويشربون من ألبانها ويركبون ظهورها ويحدونها أي يغنون لها في بلاهة، وهكذا صرفتهم حياة البادية ببساطتها عن الطموح وأماتت فيهم الأمل إلى مضاهاة الأمم الناهضة من حولهم.

عُقولٌ من الأحجارِ هامت بمثلها : وكُلٌّ بَكيمٍ للبكيمِ كِفاءُ (٢)

وقد فصل البيت عن سابقه لكمال الاتصال حيث يعد منه بمنزلة التوكيد من متبوعه.

وقد شبه الشاعر هنا عقول الجاهليين في أوهامهم الضالة بالأحجار الصماء التي لا

(١) الديوان: ١٩

(٢) الديوان: ١٩

تسمع ولا تجيب أي عقولهم كأنها الأحجار، وهو بهذا يشير إلى ضحالة الفكر العربي وعقمه عن الإبداع.

ثم وصفها بأنها: «هامت بمثلها» أي هامت بأحجارٍ وأصنامٍ مثلها، والهُيامُ: كالجنون من العشق.. والهائمُ: المُتحيِّر [1] والمراد أن عقولهم عشقت الأحجار وهي كناية عن عبادة الأصنام.

والبكيمُ: من البكم وهو الخرَسُ عن عيٍّ وبلهٍ، والبكيمُ: الأبكم. [1]

فالبكيم الأول المراد به الأصنام لأنها بكماءُ لا تنطق والبكيمُ الثاني: المراد به عُبَّادُ الأصنام فهم ينطقون لكنهم لا يعرفون الحق.

فالشاعرُ هنا يستعير البكم الأول للأصنام استعارةً تصريحيةً تشبيهًا لها بالبهائم والحيوانات البكماء حيث إنها لا تنطق ولا تسمع ولا تجيب، ويستعيرُ البكم الثاني لِعُبَّادِ الأصنام مع أنهم ينطقون لكنهم كالحيوانات والبهائم في انعدام التفكير لديهم وعقم عقولهم.

وقد أبرزت الاستعارتان مساواة الأصنام لعبادها في التفكير والعقل إن كان للجميع تفكير!!.

ولو حاكمنا الشاعر هنا بمنطق الواقع والعقل لوجدناه ربما يكون مخطئًا في وصفه للعرب في هذا البيت والذي قبله، حيث خلع عليهم من صفات السفه والبلاهة والبدائية والبكم وانعدام العقل ما جعلهم مثالًا لتحجر العقول وضيق الأفهام وبلادة التفكير.

والعربُ لم يكونوا كذلك أبدًا، فقد كانوا أذكياء ألمعيين بفطرتهم فصحاء ذوي بيانٍ صافٍ يمتلكون عقولًا وألسنة قوية ولاشك أنهم كانت لهم طموحاتٌ وأحلامٌ وتطلعاتٌ وآمال.

لكن العذر الذي يمكن أن نلتمسه لشاعرنا هو أنه يتحدث عن وصف العقيدة الوثنية العقيمة التي ارتوى بها العربُ حتى شبعوا فملأت عليهم حياتهم وصرفتهم عن

(١) اللسان: بكم

التطلع إلى مضاهاة الأمم من حولهم، أما انشغالهم بإبلهم وشائهم وحُدائهم فهذا أمرٌ طبيعيٌ يتفق مع روح البادية وبساطتها، فالإبل تمثل لهم الأمن القومي للحياة، ولا نعيبُ الإنسانَ أن يهتم بما يؤمنه في ماله وطعامه وشرابه وحله وترحاله.

الصورةُ هنا سوداويةٌ قاتمة أراد الشاعر من خلالها – على كل حال – أن يبرز ما كان عليه العربُ من جهلٍ وضلالٍ وسفاهةٍ قبل مجيء رسول الله ﷺ وكيف كانت بعثته ﷺ نورًا أضاءَ لهم الحياة.

ثم قارن بين حال العرب والفرس والروم يقول: (١)

فكم كان للرومانِ والفرسِ صولةً : وهمْ في بوادي أرضهم سُجناءُ

وقد ربط البيت بما قبله بالفاء العاطفة ليشير إلى ترابط المعاني المسوقة وأنها تعمل جميعًا في سياق متصل وهو الدلالة على قبوع العرب في أماكنهم وتقدم الأمم من حولهم.

والصوْلةُ: هي السطوة والوثبة (٢) وهي اسمُ مرة وقد استعارها الشاعر استعارة تصريحية للتقدم والحضارة التي كان عليها الفرسُ والروم تشبيهًا لها بالوثبة أو القفزة، أو أنها سطوةٌ حقيقية حيث كانت السيادة لهم والحكم وكان حكام العرب عمالًا عندهم، وكلا المعنيين وارد.

و «كم» هنا هي «كمْ» الخبرية وهي أداةٌ للإخبار عن معدود كثير ولكنه مجهول الجنس والكمية، ويجب أن يكون الإخبارُ بها عن شيءٍ مضى والدافع إلى استعمالها هو الافتخار والمدح بكثرة شيءٍ محبوب معلوم أو الذم بكثرة شيءٍ معيب كذلك ويكون تمييزها مجرورًا وجوبًا إلا إذا فصل عنها بجملةٍ فيجب نصبه. (٣)

وتمييزها هنا هو «صولةً» وهو مفصولٌ عنها بجملة «كان للرومان والفرس» لذا وجب نصبه، وهي تشير مع تمييزها إلى كثرة قفزاتهم وتقدمهم في شتى ميادين الحياة،

---

(١) الديوان: ١٩

(٢) اللسان: صال.

(٣) النحو الوافي لعباس حسن: ٤/ ٤٨٢-٤٨٤ الناشر: آوند دانش للطباعة والنشر والتوزيع – الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

وهي تكشفُ عن إحساس الشاعر بالحسرة والمرارة لتخلف العرب وتقدم الأمم من حولهم.

وقوله: «وهم في بوادي أرضهم سجناءُ» كناية عن صفة هي القبوع في مكانٍ ما والنمطية في الحياة ووراءها كذلك إيحاءٌ بانغلاق العرب وعدم اندماجهم في حياة الرقي التي سادت لدى الأمم من حولهم.

وفي هذا كذلك تجنٍّ على العرب – كما قلت في سابقه – إذ إن العرب كانوا أصحاب تجارة ورحلات ووفودٍ على الملوك والسادة، حتى ملوك الفرس والروم أنفسهم، ولم يكونوا قابعين في باديتهم كما صور الشاعر.

لكنه كما قلت – يقصد أن يقارن بين حالهم وحال الفرس والروم ليبرز قيمة الطفرة الهائلة التي أحدثها النبي ﷺ في حياتهم بعد مجيء الإسلام.

ثم بين الدخائل النفسية التي انطوت عليها نفوسُ العرب يقول: (١)

عِرَاكٌ وأحقادٌ يشُبُّ أوارُها : جحيماً وكِبرٌ أجْوَفٌ وغَباءُ

وقد فصل البيت عما قبله لكمال الاتصال حيث نزل منه بمنزلة التوكيد من متبوعه، وقد بنى الكلام هنا على حذف المسند إليه أي: حالهُم أو حياتُهم عِراكٌ... إلخ.

وحذف المسند إليه هنا يشير إلى انطباعهم على تلك الخلال وتنكير هذه الأمراض وهي «المسند» يشير إلى تهويلها وتضخيم أمرها وكثرتها.

فقد سيطرت المعارك والمشاحنات على حياتهم وامتلأت قلوبهم بالأحقاد فهذه حقيقةٌ لا يجهلها أحد وإن كانت عندهم قيمٌ إنسانية أخرى كالكرم والمروءة والنجدة أو عند بعضهم.

والحقيقةُ أن الأحقاد والضغائن عندهم اشتعلت كالنار وهذا ما عبر عنه الشاعر بقوله: «وأحقادٌ يشُبُّ أوارُها» أي تشتعل نارُها.

---

(١) الديوان: ١٩

وفيه استعارةٌ تمثيلية حيث شبه هيئة العرب في تحاقدهم وتضاغنهم واشتعال الكراهية والعداوة بينهم بهيئة النار التي تشتعل جذوتها ويشب أوراها بجامع الهيجان والاندفاع والحركة السريعة المتطايرة ووقوع الضرر في كل منهما، ثم استعار الهيئة الثانية للأولى.

فالأحقادُ حين تستحكم من القلوب وتتمكن البغضاءُ من الأفئدة تشبه النار المشتعلة المتوقدة التي تأتي على الأخضر واليابس فتدمره وتهلك الحرث والنسل وهكذا الأحقاد تدمر النفوس وتحصد الرءوس كما تفعل النيران والجحيم.

وقد رشح الاستعارة بكلمة «جحيمًا» فهي تشير إلى أنها نارٌ تهلك أصحابها.

ثم بين صفة نفسية قبيحة ثالثة وهي: «كِبرٌ أجوفٌ» والشيءُ الأجوفُ هو الخالي الوسط وهو من أوصاف المحسوسات فوصف به الكبر تشخيصًا له بصورة الشيء المجسم الأجوف على سبيل الاستعارة المكنية وهي تصور لك الكبر بالوهم والخداع والسراب، فهو فوق كونه كبرًا مذمومًا بما فيه من تعال وتكبر وتفاخر على الناس، فهو كذلك كذبٌ وخداعٌ إذ ليس لديهم ما يدعوهم إلى الكبر والخيلاء حسب تصوير الشاعر.

ثم ذكر الصفة الرابعة وهي «وغباء» والغباء هو قلة الفطنة والغفلة [1] وانعدام الذكاء وضيق الفهم وبلاهة الخاطر وسذاجة المنطق وقد يقصد به سرعة الاندفاع والتعدي على الآخر.

والمعنى الأول منعدمٌ لدى العرب فهم أصحاب فطنة أرباب ذكاء بينما المعنى الثاني وهو التهور وسرعة التعدي والظلم ربما يكون سائدًا لدى كثير منهم وهو المراد.

وعليه فيكون في قوله: «وغباء» استعارة تصريحية؛ حيث شبه سرعة الاندفاع والتعدي على الآخر بالغباء، وصرح بالمشبه به والعلاقة بينهما هي جهل مغبة الفعل في كلٍ منهما.

(١) مختار القاموس للطاهر أحمد الزواوي: غ ب و – الدار العربية للكتاب – ليبيا.

ثم بين مظهرًا من مظاهر العراك والأحقاد التي ذكرها يقول: (١)

عجبتُ لأمرِ القومِ يحمونَ ناقةً : وساداتهم من أجْلِها قُتلاءُ

وجاء البيت مفصولًا عن سابقه لكمال الاتصال فهو توكيد لمعناه، وهذه حقيقةٌ نوافق الشاعر عليها فهم الذين قامت بينهم الحرب بسبب مهرتين وهي المعروفة بحرب داعس والغبراء.

فالشاعر هنا يبين واقعًا مؤلمًا نشأ عليه العرب، حيث كانت تشتعل بينهم الحروب بسبب ناقةٍ أو بئر ماء، وتقعُ على إثر ذلك أشلاءُ الرجال وتُزهقُ الأرواحُ.

وانظر إلى كلمة «ناقة» هكذا بالتنكير وهي تشير إلى حقارتها وضعتها قياسًا بأرواح الناس.

ثم اختيار لفظ «ساداتهم» وهم أشراف القوم وعظماؤهم تزهق أرواحهم وتهلك نفوسهم من أجل ناقة!.

لاشك أن قومًا عاشوا أسارى لتلك الخلال لسفهاءُ.

الصورة هنا في هذه المقطوعة – كما قلت – من حيثُ اللون قاتمة السواد في المقطوعة عمومًا «انظر إلى القتام والدكنة والظلام في: الأحجار، والبكم، وسجناء، والعراك، والأحقاد، والأوار، والكبر الأجوف، والغباء، وغير ذلك من الألوان القاتمة المعنوية والحسية». (٢)

ومع كُلٍّ فهي مع قتامتها وسوداويتها قد وُفِّق الشاعرُ في بعضها أو في كثير منها ونقل صورة حقيقية لحياة العرب قبل الإسلام، وكيف جاء الإسلام برسوله المبارك فأضاء ظلام الجهل وأزاح أحقاد النفوس وطهرها بالإيمان.

وكان مبالغًا في بعضها الآخر حين وصف العرب مثلًا بالبلاهة والغباء والبكم وتحجر العقول، وهي صفاتٌ قبيحةٌ لا أظن كثيرًا منها اتصف به العربُ.

---

(١) الديوان: ١٩

(٢) من مقال الصور الشعرية عند الجارم د/ علي صبح نقلًا عن كتاب: الجارم في عيون الأدباء: ١٦٣.

الفكرة الثامنة

عَوْدٌ إلى مدحِ الحبيبِ ﷺ

[الأبيات من ٤٣ – ٥٣]

يقول الشاعر:

بـدا في دُجـى الـصحراء نـورُ محمـدٍ : وجلجـلَ في الـصحراء منـهُ نِـداءُ

نبـيٌّ بـه ازدانـت أبـاطِحُ مكـةٍ : وعـزَّ بـهِ ثَـوْرٌ وتـاه حِـرَاءُ

لقـد شربـوا مـن منهـل الـدين نَغبـةً : مطهـرةً فالظـامئون رِوَاءُ

وقـد لمحـوا مـن نـور طـه شُـعاعةً : فكـل ظـلامٍ في الوجـود ضِـياءُ

نبـيٌّ مـن الطُهـرِ المـصفّى نجـاره : سـماحة نفـسٍ حُـرّةٍ وصَـفاءُ

وصـبرٌ عـلى الـلأواءِ مـا لانَ عُـودهُ : ولا مَـسَّهُ في المعـضلاتِ عَنـاءُ

وزُهـدٌ لـه الـدنيا جنـاح بعوضـة : وكـل الـذي تحـت الهبـاءِ هَبـاءُ

تـراه لـدى المحـراب نُـسكاً وخـشيةً : وتلقـاه في الميـدانِ وهـو مَـضَاءُ

إذا صـالَ لم يـترك مَـصالاً لـصائل : وإن قَـال ألقـت سـمعَها البُلغَـاءُ

كـلامٌ مـن اللهّ المهـيمن روحُـه : ومـن حُلـلِ الفُـصحى عليـه رداءُ

كـلامٌ أرادتـه المقاويـلُ فـالتوى : عليهـا، وضـلَّت طُرقَـه الحُكـماءُ

* * * * *

*** التحليل البلاغي:**

وفي هذه الفكرة يعودُ الشاعرُ إلى مدحِ الحبيب ﷺ فيذكره بأعظم صفاته، فيذكر نوره الذي أضاء ظلام الصحراء وكلامه المقدس الذي دوَّى بين جنباتها يقول: (١)

بدا في دُجى الصحراء نورُ محمدٍ : وجلجلَ في الصحراء منهُ نِداءُ

وقد جاء البيت مفصولًا عما قبله لاستئناف معنىً جديد.

وفي قوله: «بدا في دُجى الصحراء نورُ محمدٍ» استعارة تمثيلية؛ حيث شبه هيئة ما جاء به رسول الله ﷺ من الهدى والإيمان فأزاح به ضلالتهم وأنار قلوبهم بهيئة النور الساطع المشرق في آفاق ليلٍ بهيم يبدد ظلامه ويمحوه ثم استعار الهيئة الثانية للأولى.

ووراءها إيحاءٌ بإشراق شمس الحبيب ﷺ وتَلَأْلُؤ نوره وتبديده ظلام الصحراء بما جاء به من دينٍ سمحٍ وأخلاقٍ رفيعةٍ ونورٍ مبين.

واختيار الفعل «بدا» وهو من البُدُوُّ يوحي بالإشراق المبكر والظهور الوضَّاء.

وقد استعار الشاعر «دُجى الصحراء» لما كان عليه العربُ من ظلامٍ وضلال في عقولهم وسلوكهم وعاداتهم وعباداتهم.

ثم بين جلجلة صوته في آفاق الدنيا بقول: «وجلجلَ في الصحراء منهُ نِداءُ».

والجلجلةُ: صوتٌ له تردُّد فقد استعارها الشاعر لبلوغ دعوته ﷺ آفاق الصحراء استعارة تصريحية تبعية في الفعل وهي تشير إلى الحدث الجلل الذي نزل بساحة العرب فزلزل كيانهم وغير مجرى الحياة.

ثم بين أُنسَ الأماكن وعزها به ﷺ يقول: (٢)

نبيُ به ازدانت أباطِحُ مكةٍ : وعزَّ بهِ ثَوْرٌ وتاه حِرَاءُ

أي هو نبي فبنى كلامه على حذف المسند إليه للقطع والاستئناف حيث قدَّم ذكر

(١)، (٢) الديوان: ١٩

بعض صفاته وذلك لتفخيم قدره وتهويل أمره، وقد جاء المسند «نبيٌّ» منكرًا ليفيد تعظيمه والتهويل من قدره ومكانته.

وفي قوله: «به ازدانت أباطِحُ مكة» مجازٌ عقليٌ علاقته المكانية، حيث أسند الفعل «ازدانت» للأباطح وهي مكان والمراد ازدان به أهل مكة وهو يشير إلى المبالغة في عموم نوره ﷺ وتشريفه للأماكن والبقاع والناس.

والمجاز العقلي هنا يخلع الحياة على الأباطح ويسبغُ «الحيوية على هذه الجمادات التي لا تفعل شيئًا بجعلها فاعلة مما يشير إلى تميزها عما عداها وأفضليتها على ما سواها كما أن فيه مبالغة في وصف الفاعل الحقيقي بالفعل». (١)

فالأباطح نالت هذا الشرف بمشي النبي ﷺ فوقها وإذا كانت ازدانت لذلك فلا شك أن أهلها أولى منها بالجمال والازديان. ثم جاءت الاستعارة المكنية التي بدا فيها التشخيص واضحًا في قوله: «وعزَّ بهِ ثَوْرٌ وتاه حِرَاءُ» حيث شبه جبلي «ثور» و «حراء» بإنسان وحذف المشبه به ودل عليه ببعض صفاته وهي العزة والخيلاء، فالفعل «تاه» بمعنى اختال وفخر.

فهي تخيل لك أن غاري «ثور وحراء» خلعت عليهما صفاتُ الحياة والأحياء فأحدهما يشعر بالعزة والآخر يشعر بالتيه حيث دخلهما رسول الله ﷺ متعبدًا في حراء، ومختفيًا في ثَورٍ أثناء هجرته المباركة ﷺ.

لقد شربوا من منهل الدين نَغبةً : مطهرةً فالظامئون رِوَاءُ (٢)

والفصل هنا للقطع والاستئناف حيث عاد إلى ذكر أوصاف العرب حين ارتووا بهدي الحبيب ﷺ وقد بني البيتَ كله على الاستعارة التمثيلية.

حيث شبه هيئة العرب حين أتاهم رسول الله ﷺ بالنور والإيمان فتعلموا منه

(١) المجاز العقلي بين عبد القاهر والمتأخرين – الأستاذ الدكتور/ الشحات محمد أبو ستيت: ٢٢

(٢) الديوان: ١٩

واهتدوا بهديه المبارك وقد كانوا يتخبطون في الحياة خبط عشواء ويتطلعون إلى شعاع من النور تستقيم به حياتهم، بهيئة ظمآن شديد الظمأ ورد منهلًا عذبًا صافي النبع فنهل منه ثم علَّ حتى ارتوى وذهب ظمؤه وشعر بالحياة تسري في عروقه بعد تعطش طويل ثم استعار الهيئة الثانية للأولى.

والجامع هو هيئة وصول شيءٍ نافعٍ مفيدٍ إلى إنسانٍ هو في أشد الحاجة إليه.

والاستعارة التمثيلية هنا تشير إلى ما كان عليه العربُ من خواء معرفي وضلال فكري وانعدام لمصادر الهدى فجاءهم رسول الله ﷺ وهم ظمأى بهديه المبارك ونبعه الصافي الرقراق فصادف لدى كثير منهم هوى في نفوسهم بحكم انطباع أصل الفطرة على الهدى والاستقامة ونفورها من الضلال والاعوجاج فروى ظمأهم وطهر قلوبهم وأنقذهم من مواطن الموت وموارد الردى والهلاك.

وفي البيت مراعاة نظير في قوله: «شربوا – منهل – نغبة (والمراد بها الجرعة) – مطهرة – الظامئون – رواء».

حيث جاءت كلها من سياقٍ واحدٍ أو وادٍ واحدٍ وهو وادي العطش والظمأ والارتواء والماء.

ووراءها تأكيدٌ على ترابط الكلام وتآلفه، حيث تأخذ كل كلمة بحجُزِ أختها وهذا البابُ جديرٌ بأن يسمى علم المناسبة ولذا كان من أسمائه التوفيق والتناسب والائتلاف والمؤاخاة. (١)

وقد أفاد الطباق بين «الظامئون« و «رواء» تحوُّل حال العرب من الجهل إلى العلم ومن الضلال إلى الهدى والنور.

وقد لمحوا من نور طه شُعاعةً : فكل ظلامٍ في الوجود ضِياءُ (٢)

(١) مباحث في وجوه تحسين الكلام د/ رفعت إسماعيل السوداني: ٤٦ مطبعة الأمانة – الطبعة الأولى ١٤١١هـ – ١٩٩١م

(٢) الديوان: ١٩

وقد وصل البيت بسابقه للتوسط بين الكمالين فكلاهما خبر وبينهما تناسب في المعنى.

وفيه – كسابقه – استعارةٌ تمثيليةٌ، حيث شبه هيئة النبي ﷺ حين بعث فهدى اللهُ به العربَ وقوم اعوجاجهم وهذب أخلاقهم وحرر عقولهم من الأوهام والخرافات بهيئة النور الذي أشرق وسط ظلام دامسٍ فأطلَّ بشعاعه ليزيحَ ظلام الكون وينير الوجود ثم استعار الهيئة الثانية للأولى.

واختيار الفعل «لمحوا» يشير إلى لفت النظر وشد الانتباه لهم من قبل النبي ﷺ بما ظهر به من مكارم الأخلاق واستقامة الفطرة.

ولفظ «كل» وهو يفيد العموم في قوله: «فكل ظلامٍ في الوجودِ ضياءُ» يشير إلى عموم هديه المبارك وشموله آفاق الدنيا كلها دون استثناء.

وقد أفاد الطباقُ بين الظلام والضياء الفارق ما بين عهدين: عهد الجاهلية المظلم الكئيب، وعهد الإسلام المستنير بنور رسول الله ﷺ.

ثم بين صفاء نفسه ﷺ يقول: (١)

نبيٌّ من الطُهرِ المصفّى نجاره : سماحة نفسٍ حُرّةٍ وصَفاءُ

والبيت هنا قائم على حذف المسند إليه للقطع والاستئناف حيث تقدم ذكر بعض أوصافه ﷺ ثم عاد للحديث عنه وحذف المسند إليه أي هو نبي تعظيمًا له وتهويلًا لشأنه.

والمراد بـ «نجاره»: أصله، والمعنى: نبيٌّ أصله من الطهر المصفّى والطهر لا يُصفَّى ولا يوضع في المصفاة وإنما شبهه الشاعر بشيءٍ حسيٍّ يمكن أن يُصفَّى وتُنزع منه الأقذاءُ وحذف المشبه به ودل عليه بلازمه وهو التصفية على سبيل الاستعارة المكنية.

والطهر هنا يراد به طهر الحسب والنسب والأصل وصفاءُ القلب ونقاء السريرة والقدسية التي أحاطت برسول الله ﷺ حتى كأنه تجسم منها.

(١) الديوان: ١٩

فالنبي ﷺ لصفائه وطهارته كأنه في أصل نشأته تجسَّد من الطهر المصفى ورُكِّب منه، فسرى في عروقه ودمائه ولحمه وعظمه وروحه فكان صفاءً في صفاء ونقاءً في نقاء ﷺ.

ولذلك وضَّح هذا الصفاء بقوله: «سماحة نفسٍ حُرّة وصَفاءُ» فلقد كانت السماحة فيه ﷺ من أبرز الصفات المحمدية التي استولى بها على قلوب العباد، ثم إنها ليست نفسًا ذليلة أو مستكينة وإنما هي نفسٌ حرةٌ أبيةٌ لا تقبل الضيم، فهي إذا سامحت وكثيرًا ما تسامح سامحت عن عزة وقدرة على الانتصار.

ثم رد العجُزَ على الصدر في قوله: «وصفاءُ» فهو راجع لقوله: «المُصَفَّى» ووراءه بيانٌ لتلك الشخصية الفريدة التي تجسمت من الطهر والنقاء والصفاء بحيث صار البيت كله كأنه صفاء.

وفي البيت كذلك من ألوان البديع «مراعاة النظير» بين «الطهر – المصفى – سماحة – حرة – صفاء» وهي كلها من وادي الطهر والنقاء وقد أبرزت النبي ﷺ مثلًا أعلى في شرف النفس ومكارم الأخلاق.

ثم بيَّن صبره ﷺ في مواجهة صعاب الدعوة فقال: (١)

وصبرٌ على اللأواءِ ما لانَ عُودهُ : ولا مَسَّهُ في المعضلاتِ عَناءُ

والوصل بالواو يفيد الجمع في أصل فطرته وخلقه ﷺ بين تلك الصفات المباركة التي كان من أعظمها صفة الصبر.

واللأْواءُ هي الشدة، فقد كان ﷺ صبورًا على شدائد الحياة حسية كانت أو معنوية، وحرف الاستعلاء «على» يشير إلى تأصل صفة الصبر فيه ﷺ، فهو يتحمل الأذى من قومه ويجاهد في سبيل دعوته ويرعى الأغنام في صباه ويعيش يتيمًا فيقاسي مرارة اليتم وينتقل في حياته ﷺ من شدةٍ إلى شدة إلى أن لقى ربه كل ذلك وهو ثابت القلب لا

(١) الديوان: ١٩

يتزحزح عن الحق صبورٌ على محن الأيام وشدائد الدهر.

ثم إنه يعلم أنها ابتلاءاتٌ من الله وأنه وُضِعَ في مكانةٍ عظيمةٍ تحتاج الجهاد ولذلك كان قويًا ثابتًا وقد عبر عن ذلك بقوله: «ما لان عُودُه».

وقد فصل هذه الجملة عن قوله: «وصبرٌ على اللأواءِ»؛ لكمال الاتصال؛ حيث تعد توكيدًا لها في المعنى والمضمون.

والجملة هنا كناية عن قوته ﷺ في مواجهة الشدائد في الدعوة وأزمات الحياة.

أما قوله: «ولا مَسَهُ في المعضلاتِ عَناءُ» فالعناءُ هو التعبُ والإرهاق والمشقة، والمعضلاتُ هي شدائد الأمور، ويقصدُ بها حياتهُ الدعوية الشاقة، فأعتقدُ أن الشاعر هنا لم يوفقْ في معناه.

فكيف ينفي عن النبي ﷺ العناءَ وقد أثبته له في المصراع الأول من البيت في قوله: «وصبرٌ على اللأواءِ».

ثم إن الواقع يثبت المشقة الفادحة والعناء البالغ الذي حلَّ برسول الله ﷺ في دعوته.

إلَّا إذا أراد بالعناء هنا التبرُّم أو الضيق والضجر على سبيل الاستعارة التصريحية تشبيهًا لتلك المعاني النفسية بالعناء لما فيها من معاناةٍ بالغة.

وقد نفهم حينئذٍ أن المراد أنه ﷺ لم يضجرْ يومًا من دعوته ولم يتسرَّبْ إليه الضيقُ أو التبرُّم أو اليأس والقنوط وإنما كان صامدًا كالجبل في مواجهة كل شدةٍ بصبرٍ ويقين في نصر الله.

وقد تواءمت كلماتُ البيت في توافقٍ وانسجامٍ حيث وقع به «مراعاة النظير» بين «صبر – اللأواء – عوده – المعضلات – عناء» وكلها من وادي الشدة والعناء، وقد جعلت «الكلام متناسبًا متلائمًا لا تجد فيه لفظة نافرة ولا كلمة شاذة، تأخذ كل كلمةٍ فيه بعنق صاحبتها وترتبط بها ارتباطًا وثيقًا». (١)

(١) دراسات منهجية في علم البديع د/ الشحات محمد أبو ستيت: ٦٩

وزُهــدٌ لــه الــدنيا جنــاحُ بعوضــةٍ : وكــل الــذي تحــت الهبــاءِ هَبــاءُ [1]

وتأتي الواو هنا كذلك وهي تفيد مطلق الجمع لتضيف صفة أخرى من صـفاته ﷺ وهي صفة الزهد، والشاعر هنا يبين زهده ﷺ في الدنيا، وهو لم يكن زهـدًا عـن فقـرٍ أو حاجةٍ وإنما عُرِضت عليه الدنيا فأبى.

وفي قوله: «له الدنيا جناحُ بعوضةٍ» تشبيهٌ بليغٌ، أي الدنيا لـه كجنـاح البعوضـة في الحقارة والهوانِ والضعة والانحطاط.

وهو يعكسُ لنا نظرة النبي ﷺ إلى الحياة وهوانها عليـه ثـم إنهـا بخيلهـا وخيلائهـا ورجلها ضعيفةٌ مسكينةٌ أمام قدرة الله، ومن ثم تتصاغرُ أمام عينيه الجبـابرة والعتـاة فينطلـق ثابتًا في دعوته تحدوه الثقة واليقين في معية الله.

والهباءُ: هو التراب الذي تطيره الريحُ فتراه على وجوه النـاس وجلـودهم وثيـابهم يلزقُ لزوقًا.. والهباءُ: الغبار، وقيل هو غبارٌ شبه الدخان ساطعٌ في الهواء. [2]

فقوله: «وكل الذي تحت الهباءِ هَباءُ» كناية عـن اضـمحلال قيمـة الـدنيا وفنائهـا، وبيان أنها زهيدةٌ لا قيمة لها، فكل ما تحت التراب ترابٌ أو غبارٌ وذرٌّ متناثر لا قيمة له.

وهو يشير بذلك إلى الإنسان؛ لأنه يومًا ما يوضعُ تحت التراب ويشير كذلك إلى مـا يمتلكه من مالٍ وجاهٍ ودنيا عريضة حيث إنها جميعًا يومًا ما ستكون حطامًا في التراب لا قيمة لها، وهذا ما زهَّد فيها رسول الله ﷺ وجعلها في عينيه لا تساوي جناح بعوضة.

تـراه لـدى المحـراب نُـسكاً وخـشيةً : وتلقــاه في الميــدانِ وهــو مَــضَاءُ [3]

وقد عدل الشاعر هنا عن سرد الصفات المفردة إلى التعبير بالفعل المـضارع «تـراه» ولذا فصله عنها حتى لا يعطف الفعل على الاسم، واختيار فعل الرؤية هنا يـشير بمادتـه

(١) الديوان: ١٩
(٢) اللسان: هبا
(٣) الديوان: ١٩

اللغوية ومضارعيته إلى استحضار الصورة الحقيقية لرسول الله ﷺ.

والشاعر هنا يبرز صفتين عظيمتين اجتمعتا لرسول الله ﷺ الأولى منهما: التعبد الخاشع، والثانية، الشجاعة الماضية.

فإذا نظرنا إليه «لدى المحراب» وهو كناية عن الصلاة، نجده ناسكًا خاشعًا والتعبير هنا بالمصدر «نسكًا وخشيةً» يوحي بالمبالغة، كأنه تجسَّم منهما وذلك لشدة خشوعه ﷺ وخوفه من ربه.

ثم قال: «وتلقاه في الميدانِ وهو مَضَاءُ» أي وتجده في الحرب أثناء المعركة شجاعًا مقدامًا، كالسيف الماضي يقال: مضى في الأمر مضاءً: نفذ، ومضى السيف مضاءً: قطع. (١)

والمراد أنه يشبه السيف الماضي أثناء المعركة فهو تشبيهٌ بليغٌ ووراءه بيانٌ لفرط شجاعته ﷺ، وقد كان أصحابه يتقون به إذا اشتدت الحربُ وحمى الوطيس.

وذكر الميدان هنا وهو موقع الحدث أو مكان المعركة يشير إلى تقدمه ﷺ إلى معمعة القتال، فهو لا يعُدُّ نفسه قائدًا ومن ثم يتأخر أو يجلس في قصر عاجيٍّ، وإنما هو مع أصحابه في الميدان شأنه شأن سائر جنوده.

وقد أظهرت المقابلةُ بين الشطرين حالتين مختلفتين بلغ فيهما رسولُ الله ﷺ درجة الكمال البشري، فهو في العبادة أكمل الناس خشية لله وأتقاهم وفي الشجاعة والفروسية أقدرهم وأمضاهم إلى لقاء الأقران.

إذا صالَ لم يترك مَصالاً لصائل : وإن قَال ألقت سمعَها البُلغَاءُ (٢)

وقد جاء البيت مفصولًا عن قوله السابق «وتلقاه في الميدان وهو مضاء» لكمال الاتصال حيث يعد توكيدًا له.

---

(١) اللسان: مضى

(٢) الديوان: ١٩

وصال: أي وثب والمصاولةُ: المواثبة وصال: إذا سطا، وصال الفحلُ على الإبل: قاتلها، وصال الجملُ وهو جملٌ صئولٌ: هو الذي يأكل راعيه ويواثب الناسَ فيأكلهم. (١)

فاستعار الشاعر هنا الفعل «صال» من صولان الفحل بمعنى القتال والجهاد في سبيل الله، فـ«صال» هنا بمعنى: قاتل، على سبيل الاستعارة التصريحية وهي تشير إلى قوته ﷺ وشجاعته وإفزاعه الأعداءَ بصولانه وجولانه وسط المعمعة.

ووراءَها إيحاءٌ بالقوة النفسية التي حباهُ الله ﷻ بها ومنحه إياها.

وقوله: «لم يترك مَصالًا لصائل» المصال: مفعل: اسم زمان أو مكان والصائل هو المقاتل وكلها مُستعارةٌ كذلك من صولان الفحل ومواثبته استعارة تصريحية ووراءها بيانٌ لإفزاعه ﷺ الأقران الأشدَّاء مهما كانت صولتهم وقوتهم فحين يسمعون به يَخنسُونَ ويتاورون.

وإذا كان قد مدح النبي ﷺ بالشجاعة في الشطر الأول، فإنه مدحه بالفصاحة في الشطر الثاني في قوله: «وإن قَال ألقت سمعَها البُلغَاءُ» وهو كناية عن صفة هي فصاحته ﷺ وبلاغته العالية وحسنُ بيانه الذي استهوى القلوب واستولى عليها وامتلك العقول والألباب.

وانظر إلى اختيار «إذا» مع الفعل، و«إن» مع القول، والأصل في «إذا» أن تأتي في مقام الجزم بوقوع الشرط، بخلاف «إنْ» فإن الأصل فيها أن تأتي في مقام عدم الجزم بوقوع الشرط، ولذلك تستعمل في المعاني المحتملة المشكوكة. (٢)

وهذه الدقةُ في الاختيار توحي بأنه ﷺ قليل الكلام كثير الفعال فكلامه النزر اليسير لا يتكلم إلا لحاجة لكنه في مقام الفعل مقدامٌ سبَّاقٌ إلى الخيرات.

---

(١) اللسان: صول

(٢) المُطوَّل شرح تلخيص مفتاح العلوم لسعد الدين التفتازاني: ٣١٧ تحقيق الدكتور/ عبد الحميد هنداوي دار الكتب العلمية – ط أولى ١٤٢٢هـ.

ثم وصف كلامه ﷺ بقوله: (١)

كـــلامٌ مـــن اللهّ المهـــيمن روحُـــه : ومـــن حُلـــلِ الفُـــصحى عليـــه رداءُ

وقد جاء البيت مفصولًا عما قبله لشبه كمال الاتصال، حيث أثار البيت السابق سؤالًا فحواه، ولِمَ تُلقي البلغاءُ سمعها؟ فجاء البيت التالي بمثابة الجواب أي لأنه كلامٌ يستمد روحه من الله المهيمن ففصل البيتان كما يفصل الجوابُ عن السؤال.

وقد بنى الكلام عن القطع بحذف المسند إليه أي كلامه كلامٌ، وجملة «من الله المهيمن روحه» صفة لـ «كلامٌ» وهو بهذا يشير إلى تعظيم هذا القول وتفخيم بيانه ﷺ وحسبه أنه مستمدٌ «من الله» ففاضت على روحه نفحاتٌ مقدسة وطبع بطابع الربانية.

وقد جعل للكلام روحًا على سبيل الاستعارة المكنية تشبيهًا للكلام بإنسانٍ ثم حذفه ودل عليه بلازمه وهو الروح.

وهي تشير إلى الحياة والنماء الذي يبدو في كلامه وبيانه ﷺ.

وفي قوله: «ومن حُللِ الفُصحى عليه رداءُ» استعارة مكنية حيث شبه اللغة العربية الفصحى بسلاستها وعذوبتها ورقتها بعروسٍ حسناء تلبسُ أبهى حللها وتتزين بأجمل زينة ثم حذف المشبه به ودل عليه بلازمه وهو الحلل، وإثبات هذا اللازم للمشبه استعارة تخييلية قرينة المكنية.

ثم جعل على كلامه ﷺ رداءً من تلك الحُللِ تشبيهًا لحسن بيانه ﷺ وفصاحته برداء الزينة والجمال على سبيل الاستعارة التصريحية.

وكلاهما يوحي باستقائه ﷺ البيان والفصاحة من بحار النبع الإلهي وفيض العطاء الرباني الذي تمثلت فيه أعلى درجات الفصاحة وأرقى منازل البيان.

ثم أكد عجز فصحاء العرب عن محاكاة بيانه ﷺ يقول: (٢)

---

(١) الديوان: ٢٠

(٢) الديوان: ٢٠

كـــلامٌ أرادتـــه المقاويـــلُ فـــالتوى : عليهـــا، وضـــلَّت طُرقَـــه الحُكـــماءُ

وقد جاء البيت مفصولًا عن سابقه لكمال الاتصال حيث يعد توكيدًا لـه في المعنـى والكلام هنا قائمٌ على حذف المسند إليه كسابقه أي كلامه كلامٌ وجملة «أرادته المقاويـل» صفة لـ «كلامٌ».

وقد جاء المسند منكرًا «كلامٌ» كسابقه للتعظيم والتفخيم، والمـراد بالمقاويـل جمـع مقوال: أصحاب القول من فصحاء العرب وبلغائهم.

فـالمراد أنهـم أرادوا أن يحـاكوا كلامـه ﷺ ويُـضاهوه فـالتوى علـيهم أي صـعُب وعجزوا عن ذلك.

يقال: التوى: أي اعوجَّ والتواءُ الحية انطواؤها، والتوى الماءُ في مجراه انعطف ولم يجرِ على الاستقامة. (١)

ففي قوله: «فالتوى عليها» استعارةٌ تمثيليةٌ، حيث شبه الشاعر هيئة فصحاءِ العرب وهم يقصدون إبطال أمر النبـي ﷺ فيحـاولون مـضاهاة كلامـه ومحاكاتـه لينافـسوه في البيان، لكن سرعان ما ينسابُ إلى ألسنتهم الاعوجاج والعجز فيرجعـون بخُفَّـي حنـينٍ منكسين رءوسهم بهيئة التواء الحية وانطوائها وتثنيها حين تستعد لمهاجمة خصمٍ أو عدوٍ والجامع هو هيئة الانعطاف والتثني والاعوجاج عند إرادة المدافعة والهجـوم في كـل ثـم استعار الهيئة الثانية للأولى ووراءَها تصويرٌ لعجز العـرب عـن مـضاهاة بيانـه ﷺ، ثـم أتبعها باستعارةٍ تمثيليةٍ أخرى في قوله: «وضلَّت طُرقَه الحُكماءُ» حيث شبه هيئة الحكـماء من العرب والبلغاء وهم يحاولون سلوك مسلكه ﷺ في الفصاحة والبيان فيعجزون بهيئة من يريد أن يسلك طريقًا يحسبها ممهدة مستوية فيفاجأ بـصعوبتها ووعورتهـا فيـضل في متاهاتها ويعجز عن الوصول إلى مبتغاه.

(١) اللسان: لوى

ثم استعار الهيئة الثانية للأولى.

وكلتا الاستعارتين تشير إلى تصاغر فصحاء العرب وتضاؤلهم أمام بيان رسول الله ﷺ ، وانظر إلى اختيار الشاعر لـ «المقاويل» و «الحكماء» فهو يـتهم أبلغهـم وأحكمهـم بالعجز أمام صرح البيان النبوي المشيد.

الفكرة التاسعة

دعاء واستغاثة

[الأبيات من ٥٤ – ٥٩]

يقول الشاعر:

فيـــا رب هيِّـــئْ للرشـــادِ ســـبيلَنَا : إذا جَـــــار خَطـــــبٌ أو ألمّ بَـــــلاءُ

ونصراً وهدياً إن طغـا الـسيلُ جارفـاً : وفـــاضَ بـــما يحـــوى الإنـــاء إنَـــاءُ

نناجيـكَ هـذي رايـة العُـربِ فاحمهـا : فمـــن حولهـــا أجنـــادُكَ البُـــسَلاءُ

رميْنـا بكـفٍّ أنـت سـدّدت رميهـا : فـــما طـــاشَ ســـهمٌ أو أخـــلّ رِمَـــاءُ

أعِزْنَـا بحـق المـصطفَى منـك قـوّةً : فلـــيس لغـــيرِ الأقويـــاء بَقـــاءُ

وأســـبغْ علينـــا درعَ لطْفِـــك إنّهـــا : لنـــا في قتـــامِ الحادثـــاتِ وِقـــاءُ

* * * * *

*** التحليل البلاغي:**

ثم انطلق الشاعر في هذه الفكرة يستغيث برسول الله ﷺ ويدعو ربه أن يخفف آلام الأمة بحق المصطفى ﷺ وأن يوفقنا إلى الهدى والرشاد، يقول: (١)

فيـــا رب هيِّـــئْ للرشـــادِ ســـبيلَنَا : إذا جَـــــار خَطـــــبٌ أو ألمّ بَـــــلاءُ

والفاءُ هنا هي الفصيحة لأنها أفصحت عن جمل محذوفةٍ أي فإذا كان الأمر كـذلك فيارب، كما أنها أفصحت عن زفرات الشاعر وأناته المكلومة من جراح الأمة.

(١) الديوان: ٢٠

والأسلوب هنا أسلوبٌ إنشائيٌّ فهو نداء أداته «يا» «وهي حرف تنبيه وهي أم باب النداء فلذلك دخلت في جميع أبوابه وانفردت بباب الاستغاثة وهي لنداء البعيد مسافة أو حكمًا وقد يُنادي بها القريبٌ توكيدًا». (١)

ولاشك أن التنبيه هنا غير مراد وغيرُ لائقٍ في نداء الذات العلية وإنما المراد الاستعانة والرجاء والأمل في إجابة الدعاء.

والمُنادى وهو رب العالمين ليس بعيدًا وإنما هو قريبٌ أو أن البعد محمولٌ على بعد المكانة والمنزلة وهو بعدٌ معنويٌ المراد به التعظيم.

والغرضُ من النداء هنا الدعاء ومن ثم تبعه فعل الأمر: «هيِّئْ» أي أصلِحَ ووفق والمراد من الأمر هنا كذلك الدعاء والرجاء.

فالشاعر هنا يتوجه إلى ربه في ذكرى مولد الحبيب ﷺ وبعد التقديم بمدحه والثناء عليه أن يهيئ سبيل الرشاد والصلاح لأمته ووطنه.

وقد قيد دعاءَه بإذا في قوله: «إذا جَار خَطبٌ أو ألمّ بَلاءُ» وهي تشير إلى ضعف الإنسان عند البلاء وحاجته القوية إلى الدعاء.

والخطبُ: الحدثُ الجلل، وجار من الجور وهو الظلم وفيها استعارةٌ تصريحية تبعية في الفعل «جار»، حيث شبه الشاعر نزول الشدائد بأمته ووطنه بالجور بجامع الألم المضني في كل منهما ثم استعار في النفس الجور لنزول الشدة واشتق منه بهذا المعنى «جار» بمعنى نزلت شدةٌ أو حدثٌ مؤلم.

وهو هنا يشير إلى ما ابتليت به الأمةُ من انتكاسةٍ واستعمارٍ وتخبطٍ ويعكسُ الألم المضني الذي يشعر به الشاعر.

ثم يقول: «أو ألمَّ بلاءُ» أي نزل بنا بلاءٌ والنزول هنا معنويٌّ والمراد به نزول المصائب

(١) الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي: ٣٥٤ تحقيق فخر الدين قباوة – ومحمد نديم فاضل – دار الكتب العلمية بيروت لبنان – الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.

بساحات الإنسان.

فالشاعر هنا يتأوه لحال أمته ويتنفسُ الصعداء مُلتاذًا بجوار ذكرى مولد الحبيب ﷺ أن يزيح ربُّ العزة الغمة عن كاهل الأمة.

ثم يدعو بالنصر يقول: (١)

ونصراً وهدياً إن طغا السيلُ جارفاً : وفاضَ بما يحوى الإناءُ إنَاءُ

والوصل بالواو للتوسط بين الكمالين حيث اتفق البيت مع سابقه في الإنشائية فكلاهما بدأ بجملة أمرية الغرض منها الدعاء إذ الجملة هنا معطوفة على قوله السابق «هيئ» أي هيئ للرشاد سبيلنا وانصرنا نصرًا وارزقنا هديًا فحذف الفعل والفاعل والمفعول الأول للمسارعة بذكر المطلوب والمرغوب فيه وأملًا في سرعة وقوع النصر والهدى لأمته.

وفي قوله: «إن طغا السيلُ جارفاً» استعارةٌ تمثيليةٌ؛ حيث شبه الشاعر هيئة الشدائد والأزمات والمصائب وهي تنزل بساحة الأمة فتترك في جسدها آثارًا مضنية من الآلام والأحزان بهيئة السيل الجارف المنهمر الغزير الذي ينحطُّ من مكانٍ مرتفعٍ فيأتي على الأخضر واليابس والجامع هو هيئة نزول شيءٍ ضار على شيءٍ ما وإصابته بالدمار والخسران ثم استعار الهيئة الثانية للأولى.

ثم أتبع تلك الاستعارة باستعارة أخرى تمثيلية مثلها يقول: «وفاضَ بما يحوى الإناء إنَاءُ» أي وفاض الإناءُ بما يحويه، فقد شبه هيئة الناسِ وقد برموا من الظلم وأوشكوا على الثورة عليه حيث طفح لديهم الكيل بهيئة الإناء الذي امتلأ حتى فاض الماءُ من جوانبه ثم استعار الهيئة الثانية للأولى.

والاستعارة الأولى تشير إلى الظلم والطغيان الخارجي للعرب والمسلمين من قبل غيرهم.

---

(١)، (٢) الديوان: ٢٠

والاستعارة الثانية تشير إلى الطغيان والظلم الداخلي لهم من قبل حكامهم آنذاك وبلوغ الأمر غايته.

فالشاعر هنا يستلهم من ربه في ذكرى مولد حبيبه ﷺ أن يرزقهم نصرًا وهديًا في تلك الأوقات العصيبة التي تمالأت فيها الأمم على العرب والمسلمين وانتشر في الأمة الظلم والفساد والطغيان.

نناجيكَ هذي راية العُربِ فاحمها : فمن حولها أجنادُكَ البُسَلاءُ (٢)

وقد جاء البيت مفصولًا عما قبله لكمال الاتصال حيث يعد توكيدًا له في المعنى، والمناجاة هي المسارَّة والمقصود بها هنا الدعاء واللجوء إليه سبحانه، ومضارعية الفعل تدُلُّ على التجدد والحدوث أي نناجيك مرة بعد أخرى.

وقد وضع الشاعر راية العرب بين يدي ربه عن طريق تعريف المسند إليه باسم الإشارة «هذي رايةُ العرب» لتمييزه أكمل تمييز حتى يستنزل حماية الرحمن، ليستجير به ويستغيث ويطلب النصر، ولذلك أتبعه بفعل الأمر المراد به الدعاء في قوله: «فاحمها» مصدرًا إياه بفاء التعقيب التي تشير إلى اللهفة في وقوع الإجابة.

وفي قوله: «هذي راية العُربِ فاحمها» كناية عن تحقيق النصر للأمة العربية جمعاء، وكأن شاعرنا يلوذ بجوار المصطفى ﷺ ويستجير به في ذكراه عند ربه أن يحمي العرب والمسلمين ويعيد إليهم مجدهم وعزهم.

وفي قوله: «فمن حولها أجنادُكَ البُسَلاءُ» كناية عن صدق المدافعين عن حمى الإسلام الذائدين عن الوطن العربي وهم أبناؤه المخلصون.

وقد جاء الأجناد هكذا بجمع الكثرة «أفعال» ليدل على كثرتهم وجهوزيتهم للدفاع عن حمى الإسلام والعروبة، ووصفهم بالبسلاء بمعنى الشجعان ليدل على جسارتهم وجرأتهم عند ملاقاة الأعداء.

والبُسَلاءُ بمعنى الشجعان، وربما يقصد بقوله؛ «أجنادك» أجناد مصر الذين هم خير أجناد الأرض وهم في رباطٍ إلى يوم القيامة يحمون مصر وأهلها ووطنها ودينها من

كل سوءٍ ومكروه.

رميْنا بكفٍّ أنت سدّدت رميها : فما طاشَ سهمٌ أو أخلّ رِمَاءُ[1]

وقد جاء هذا البيت مفصولًا عن سابقه لكمال الانقطاع بلا إيهام فالسابق إنشاء وهذا خبر الغرض منه بيان توفيق الله للعرب إن هم اجتمعوا واتحدوا في مواجهة عدوهم.

وقد استعار الشاعرُ هنا هذه الهيئة الحسية استعارة تمثيلية ليبين من خلالها توجه العرب إلى قتال أعدائهم، حيث شبه هيئة العرب وهم يتوجهون لقتال أعدائهم، ويعزمون على دحر العدوان عليهم يدًا واحدة معتمدين على الله ومن ثم تكون النتيجة هي إصابة الهدف والطعن في النحور والقضاء على الأعداء وتحقيق الفوز والنصر المبين، شبه تلك الهيئة بهيئة رماة في ميدان الحرب وجهوا سهامهم لأعدائهم بأكفٍ سديدةٍ، سدَّدها الله وألهمها الصواب وإصابة الهدف، فكانت رمية موفقة، مصوبة نحو أهدافها، مصيبة لمقاتل أعدائها فما طاش سهمٌ عن غايته، وما اختلت رميةٌ عن مقصدها.

والجامع هو هيئة التوجه المصيب للأعداء، والقصد الموجع لهم بالضرب في النحور مع الإصابة والتوفيق.

ثم استعار الشاعر الهيئة الثانية للأولى على سبيل الاستعارة التمثيلية، وقد بنى الصورة في البيت كله على الاستعارة التمثيلية وهي توحي بأمل الشاعر في أن يجتمع العرب جميعًا ليرموا أعداءهم عن قوس واحدة، مصيبين في رميتهم مسددين في ضرباتهم فالوحدة تجمعهم وعناية الله تحيط بهم، وإذا حدث ذلك فلن يُخذلوا ولن تقوم لأعدائهم قائمة وسوف يسودونهم ويتقدمون عليهم بعد إصابتهم في مقاتلهم ونحورهم.

وانظر إلى ضمير الخطاب «أنت» في مقام خطاب الذات العلية وهي تشير إلى استحضار عظمته سبحانه والوثوق بالتوفيق والسداد ويؤكد هذا مجيء فاء التعقيب «فما

(١) الديوان: ٢٠

طاش سهم» وهي تشير إلى وقوع النصر مباشرة عقب توفيق الله بلا مهلة أو تراخٍ.

ثم عاد إلى الدعاء يقول: [1]

أَعِزْنَا بحق المصطفَى منك قوّةً : فليس لغيرِ الأقوياء بَقاءُ

ولذا فصل البيت عن سابقه لكمال الانقطاع بلا إيهام لأنه هنا إنشاء فهو أمر الغرض منه الدعاء وسابقه خبر.

والشاعر هنا يستلهم من ربه ويستغيث به ويتوجه إليه بقلبٍ مكلوم وجراحٍ مُثخنةٍ بالآلام في ذكرى مولد الحبيب ﷺ وبحق قدره عند ربه أن يمُد الأمة بالقوة والنصر المبين.

فالأمرُ في قوله: «أعِزْنا» وهو من الإعارة أو العارية خرج من معناه الحقيقي إلى معنى التوسل والدعاء وهو يعكس لنا استغاثة الشاعر المكلومة بالألم على حال قومه.

وقد جاء الاعتراض «بحق المصطفى» ليشير إلى توسله إلى ربه بحق رسول الله ﷺ عنده وفي ذكرى مولده المبارك الذي أضاءت به الدنيا كلها، وكأنه يقدم بين يدي دعائه وسيلة الإجابة والقبول، وهي الاستشفاع برسول الله ﷺ، فإذا كان شفيعنا في الآخرة، فهو كذلك شفيعٌ لنا في الدنيا.

والشاعر هنا يركز على منح القوة الربانية لجيش مصر وللعروبة كلها وتنكيرها «قوة» يفيد التعظيم والتهويل من خطرها.

ثم يبين بطريق القصر بالنفي والاستثناء أن البقاء للأقوى، يقول: «فليس لغيرِ الأقوياء بَقاءُ»؛ حيث قصر البقاء على الأقوياء ونفاه عما سواهم قصرًا حقيقيًا ادعائيًا على سبيل المبالغة إذ قد يعيش كثيرٌ من الضعفاء.

لكن جملة القصر تشير إلى مقصد الشاعر وهو أن الحياة الكريمة العادلة الآدمية ليست في هذه الحياة لغير الأقوياء المقتدرين ماديًا ومعنويًا المسلحين بأقوى الأسلحة وهذه

(١) ، (٢)الديوان: ٢٠

حقيقة يؤكدها واقع الحياة.

وأسبغْ علينا درعَ لطْفِك إنّها : لنا في قتامِ الحادثاتِ وِقاءُ [٢]

وقد وصل البيت بسابقه بالواو للتوسط بين الكمالين فكلاهما إنشاء، والشيء السابغ هو الكامل الوافي وسبغ الشيء سُبوغًا طال إلى الأرض واتسع، وأسبغ الله عليه النعمة أكملها وأتمها ووسَّعها [١].

وقد جعل الشاعر هنا للطف الله درعًا أو جعله بمثابة الدرع الواقي على سبيل التشبيه من باب إضافة المشبه به إلى المشبه.

وهو هنا تشبيهٌ ضمنيٌّ «وهو ما لا يكون التعبير فيه نصًّا في التشبيه، وإنما بُنيت العبارةُ عليه وطوتْه وراء صياغتها فأنت تراه هناك مضمرًا مكتومًا». [٢]

والشاعر هنا يشبه لطف الله بعباده بصورة الدرع الواقي، ووجهُ الشبه هو الحماية والوقاية في كل منهما ولا شك أنه هنا أقوى في المشبه من المشبه به على عكس المألوف، لكنه إنما أراد أن يقرب الصورة إلى أذهاننا بتلك الصورة الحسية المألوفة وهي صورة الدرع السابغ الذي يقي الإنسانَ من الأذى ويحميه من ضربات المعتدين.

والجملة كلها كناية عن تمام النعمة ومعية الله وهدايته وتوفيقه للعرب والمسلمين.

ثم بين علة دعائه فقال: «إنها لنا في قتام الحادثات وِقاءُ» وقتام الحادثات هو سوادُها وغبرتها، فقد جعل للحادثات لونًا أغبر كالقتام أو جعل ألم الحوادث والشدائد قتامًا، حيث يزيغ معها بصرُ المرءِ على سبيل الاستعارة التصريحية.

فهو يطلب لطف الله السابغ الذي يحمي الأمة ويقيها من شدائد الأيام.

---

(١) اللسان: سبغ

(٢) التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان د/ محمد محمد أبو موسى: ٩٠ – مكتبة وهبة ط خامسة ٢٠٠٤م.

الفكرة العاشرة

«إليك أبا الزهراءِ سارتْ مواكبي»

[الأبيات من ٦٠ – ٦٤]

يقول الشاعر:

إليـك أبـا الزهـراء سـارت مـواكبي : مواكـــبُ شـــعرٍ ســـاقهن حَيـــاءُ

وأنَّـــى لمـــثلي أنْ يُـــصوّر لمحـــةً : كَبَـــادُون أدنـــى وصـــفها الـــشُّعراءُ

ولكنهـا جهـدُ المحـبِ فهـل لهـا : بقُدسِـك مـن حـظ القبـولِ لِقـاءُ

ولي نـسبٌ يُنمـى لبيتـكَ صـانني : وصـــانته منـــيِّ عِـــزّةُ وإبـــاءُ

عليـك سـلامُ اللهِ مـاذَرّ شـارِقُ : ومـا عطَّـر الـدنيا عليـكَ ثنـاء

* * * * *

*** التحليل البلاغي:**

وقد انتقل الشاعر هنا إلى توديع رسول الله ﷺ معتذرًا عن جرأته في مدحه متوسلًا بنسبه إليه متوجهًا بمواكبه إلى رحابه، يقول: (١)

إليـك أبـا الزهـراء سـارت مـواكبي : مواكـــبُ شـــعرٍ ســـاقهن حَيـــاءُ

والشاعر هنا يحُطُّ رحاله في ساحِ رسول الله ﷺ متوسلًا بمدحه إلى نيل رضاه ورضا

(١) الديوان: ٢٠

ربه.

والمراد: سارت مواكبي إليك يا أبا الزهراء.

والمواكبُ: جمعُ الموكب هو الجماعةُ من الناسِ ركبانًا ومشاة.(١)

والجملة كناية عن الإقبال على رسول الله ﷺ إقبالًا معنويًا باتباعه والتوسل به والحب له، أو إقبالًا حسيًّا بزيارته ﷺ في مدينته المنورة.

وهي على كل حالٍ إعلانٌ من الشاعر عن شغفه وولهه بلقاء الحبيب ﷺ وإبرازٌ لتعلق قلبه به، واتخاذ مدحه له وسيلةً لرضاه ورضا رب العالمين.

والأولى أن نوجه المواكب هنا بالقصائد الغرَّاء التي دبَّجها الشاعرُ في مديح النبي ﷺ فهي أبياتٌ حِسانٌ تشبه المواكب المُزينة وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية، فقد استعار الشاعر لفظ «مواكب» لشعره ومدحته الغرَّاء، وبين أنها تسيرُ إليه سيرًا حثيثًا على جناحِ الحب والشوق، والذي يؤكد هذا قوله: «مواكبُ شعرٍ ساقهن حَياءُ».

والأولى من ذلك كله أن نجعل البيت قائمًا أو مبنيًا على الاستعارة التمثيلية.

حيث شبه الشاعر هيئة أشعاره في مديح النبي ﷺ في ذكرى مولده وهي تسيرُ في ربوع الدنيا وتعطر الزمان والمكان متجهة إلى رسول الله ﷺ في مثواه طلبًا لشفاعته ورضاه يحدوها الحب ويسوقها الحياء، بهيئة المواكب الحسان المزنية بالزينة والمكونة من جماعات الناس ركبانًا ومشاة متوجهين لزيارة الحبيب ﷺ في مسجده المبارك يدفعهم الحبُّ والشوقُ إلى لقاء الحبيب ثم استعار الهيئة الثانية للأولى.

والاستعارةُ التمثيلية هنا تشير إلى شوقِ الشاعر وحنينه إلى لقاء الحبيب ﷺ، وتدل على أن ما نظمه من دُررٍ شعريةٍ في مدحه في ذكرى مولده المبارك إنما كان وسيلة إلى نيل شفاعته، وهو يقدمها بين يديه متوجهًا إلى رسول الله في شوقٍ وحياء.

وما أجمل قوله: «ساقهُنَّ حَياءُ» فالأبياتُ والشعرُ تتقدم رويدًا رويدًا إلى الحبيب ﷺ يسوقها الحياء، لأنه قصر في وصف شمائله الغراء.

---

(١) اللسان: وكب

فهو شوقٌ وتوجُّهٌ مُغلَّفٌ بالاعتذار لرسول الله ﷺ عن التقصير.

وهذا التقصيرُ هو ما أشار إليه في البيت التالي يقول: (١)

وأَنَّـــى لمـــثلي أنْ يُـــصوّر لمحـــةً : كَبَـــا دُون أدنـــى وصـــفها الـــشُّعراءُ

والاستفهام هنا للاستبعاد، فهو يستبعدُ أن يكون شعرُه وصفًا حقيقيًا للمحةٍ من شمائل المصطفى فضلًا عن وصف صفاته وأخلاقه كلها.

وهو استبعادٌ مُقنّعٌ بالحياءِ، مُغلَّفٌ بالتقصير والعجز، موافقٌ للأدب في مقام خطاب خير البشر ﷺ وفي مناسبة مدحه ووراءَه استصغارٌ لقدره عن أن يكون كُفأ مهما أوتي من قوةِ بيانٍ وفصاحةِ لسانٍ هو أو غيره «لمثلي» لوصف لمحة خاطفة من لمحات فيض العطاء المحمدي المبارك النبع، السرمدي النفع على مر الزمان!.

وقوله: «كبا» بمعنى سقط وعثر (٢) وهي جملةٌ فعليةٌ كالاعتراض بين الجملة السابقة والجملة التي بعدها وهي بمثابة جواب شرطٍ محذوف والمعنى أنه إن حاول ذلك سقط وتعثر.

فهي كناية عن صفة هي تعثر الفم وتلعثم اللسان عن إرادة وصف فيض نور المصطفى ﷺ تقصيرًا وعجزًا عن الإحاطة ببعض شمائله الغرَّاء.

ولذلك وصف اللمحة بقوله: «دُون أدنى وصفها الشُّعراءُ» والفعل «دَوَّن» من التدوين وهو الكتابة والمراد: أنى لمثلي أن يصور لمحة كتب الشعراء جميعًا أقل أوصافها.

والجملة كنايةٌ عن عجز الشعراء وتقصيرهم جميعًا في الإحاطة بصفةٍ واحدة من صفاته ﷺ .

وقد وردت الرواية في الديوان ببناء الفعل «دون» للمجهول؛ لكني لم أجدْ له مساغًا للتوجيه النحوي والبلاغي، واستقام المعنى حين بُني الفعل للمعلوم «دَوَّن».

---

(١) الديوان: ٢٠

(٢) اللسان: كبا

ثم اعتذر الشاعر بأنها «جهدُ المحب» يقول: (١)

ولكنهـا جهـدُ المحـبِ فهـل لهـا : بقُدسِـك مـن حـظ القبـولِ لِقـاءُ؟

والشاعر هنا بعد أن استبعد قدرته على مدح الحبيب ﷺ يستدركُ بأنَّ ما قاله «جهدِ المحب» أي طاقته ووُسعه فهي وإن كانت ليست مكافئة لحضرة المقام النبـوي فحسبُها أنها غايةُ الجهد ومنتهى الوسع، وهو اعتذارٌ عن التقصير في المدحة النبوية المباركة.

ثم توجه بهذا الاستفهام إلى رسول الله ﷺ: «فهـل لهـا بقُدسِـك مـن حـظ القبـول لقاءُ».

أي فهل لها لقاءٌ من حظ القبول متوسلين بقدسِك ومكانك العظيم؟

والاستفهام هنا يفيد الطلب والتوسل والرجاء والدعاء، فهو يرجو من رسـول الله ﷺ أن تنال مدحته رضاه، كما يدعو ربه أن يتقبلها عنده ويجعل لها حظًا وافرًا من القبول متوسلًا برسول الله ﷺ.

ثم بين نسبته وانتماءَه إلى رسول الله ﷺ يقول: (٢)

ولي نـسبٌ يُنمـى لبيتـكَ صـانني : وصـانته منِّـي عِـزّةٌ وإبـاءُ

وهو هنا يشير إلى نسبه من رسول الله ﷺ وقرابته وانتمائه إليه. (٣)

وقد عبر عن ذلك بأسلوب القصر بطريق تقديم الجار والمجرور وهو المسند «ولى» وهو قصرٌ إضافيٌّ، يعنـي أن نـسبي إليـك خـاصٌّ بي مقـصورٌ عـليَّ ولـيس لغـيري مـن الشعراء، فقد امتاز عن سائر الشعراء بنسبته إلى آل البيت.

ومعنى: «يُنمي لبيتك» أي ينتمي ويرتفع وينتسبُ إلى بيتك ثم بين أن هذا النـسب

(١) الديوان: ٢٠
(٢) الديوان: ٢٠
(٢) انظر نسب الشاعر في التعريف به صـ٣، ٤

صانه أي حفظه وحماه من اعتداء المعتدين: «وصانته منيِّ عِزّةُ وإباءُ».

أي وصانت النسب مني عزتي وإبائي وترفُّعي عن التملق بالمديح، فهي كناية عن صفة وهي عفة الشاعر وعدم تملقه بمدحه أحدًا، لأنه ينتسبُ لآلِ البيت، وهو يشير بذلك إلى تحريم الصدقة على آل البيت، فقد صان نفسه عن الاستجداء صونًا لنسبه لرسول الله ﷺ.

ثم يختم الشاعر مدحته المباركة بالسلام على رسول الله ﷺ يقول: (٣)

عليك سلامُ اللهِ ماذَرّ شارِقٌ : وما عطَّر الدنيا عليكَ ثناء

وقد أفاد تقديم الجار والمجرور «عليك» وهو المسند القصر أي سلامُ الله عليك وحدك لا على غيرك وهو قصرٌ حقيقيٌ ادعائي، الغرض منه المبالغة في خصوصيته ﷺ بالسلام من الله دون سواه.

وقد ألقى الشاعرُ التحية والسلام على رسوله الله ﷺ في كل زمان ومكان، يقول: «ماذَرّ شارِقُ وما عطَّر الدنيا عليكَ ثناءُ»

والشارقُ: الشمسُ أو ضوءُ الشمس أو قرْنُ الشمس يقال: لا آتيك ما ذرَّ شارقٌ أي كلما طلع الشِّرقُ وهو الشمس، والشِّرقُ هو الضوءُ الذي يدخل من شق الباب (٢).

فقوله: «ما ذرَّ شارِقٌ» كناية عن طلوع الشمس ثم قال: «وما عطَّر الدنيا عليك ثناءُ» و «ما» في الموضعين مصدرية ظرفية؛ أي عليك سلامُ الله مادام هذان يحدثان: طلوعُ الشمس، والصلاةُ والسلامُ على الحبيب.

فقوله: «وما عطَّر الدنيا عليك ثناءُ» فيه استعارةٌ مكنية حيث شبه الثناء على رسول الله ﷺ والصلاة عليه بالعطر أو المسك الفوَّاح وحذف المشبه به ودل عليه بلازمه وهو «عطرَّ» وهي تشير إلى أن الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وآل بيته الأطهار تعطر

(٣) الديوان: ٢٠
(٢) اللسان: شرق.

الدنيا كلها، وينتشرُ أريجُها في آفاق الكون فتملؤه مسكًا وعنبرًا يريح النفوس ويزيح الهموم والآلام والأحزان.

وحين ننظر نظرةً عامة إلى هذه المقطوعة من القصيدة: «إليك أبا الزهراءِ سارت مواكبي»، «نلمحُ الصورة الشعرية الرائعة التي تعتمد على النسق الإيقاعي الراقص والموسيقى المتدفقة، فتهتز لها الأعماق، وتتفتح منافذ الإدراك المختلفة من العقل والعاطفة والمشاعر والوجدان.

انظر إلى التشخيص في «سارت المواكب، مواكب شعر، ساقهُنَّ حياءُ، نسبٌ صانني، وصانته عزةٌ وإباءُ، وعطر الثناء» وغير ذلك من تلك الموسيقى العذبة التي تنسابُ رقة في أوزانها وقافيتها، والإيقاعات الداخلية والخفية التي تتناغم مع أصوات الحروف والكلمات الهامسة الرقيقة، بما يتلاءم مع عاطفة الحب الصادقة للنبي ﷺ ومعانيه الروحية الصافية، ليتألف منه لحنٌ روحيٌّ، تخشعُ له القلوب، وتخضعُ له النفوس، في نجوى الدعاء الذي تتفتح لهُ أبوابُ السماء». (١)

اللهم صلِّ على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، وباركْ على سيدنا محمد وعلى آلِ سيدنا محمد، كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميدٌ مجيد.

«وآخر دعوانا أن الحمدُ لله رب العالمين»

(١) من مقال: الصورة الشعرية عند الجارم د/ علي صبح نقلًا عن كتاب: الجارم في عيون الأدباء: ١٦٠، ١٦١.

الخاتمة

- يمكن من خلال هذا البحث أن نخرج بالنتائج التالية:

* أولاً: كثُرت «**الاستعارة المكنية**» بصورةٍ واضحة في ثنايا القصيدة، حتى إنك لا تكاد تقرأ بيتًا في القصيدة، إلا وجدت فيه استعارةً مكنية أو أكثر «فالأوثانُ تُخبِّرُ أن زمانها تولى، والجهلُ يروحُ بلا عودة، والصبحُ لهُ ثغرٌ يبتسم، والأرضُ تنافسُ السماء، ولواءُ العرب يُزهى بقومه، والفقرُ يهلكُ والمُلْكُ يُبْتنى، والأحقادُ لها أوارٌ، والكِبْرُ أجوف، وثوْرٌ وحراءُ يشعران بالعزة والتِّيه، والخطبُ يجورُ» إلى غير ذلك من الجمادات التي ألقى عليها الشاعرُ ظلال الحركة والحياة والنماء من خلال الاستعارة المكنية، بلغةٍ عاليةٍ بليغةٍ، تصيب الهدف وتحقق المقصود في انسجام تام بين المستعار منه والمستعار له دون أدنى نشاز.

ويبدو أن العلةَ في انتشار هذه الظاهرة البلاغية عند الجارم هي نشأته الريفية، حيث نشأ في بلدة «رشيد» وهي على ساحل النيل وقد اشتهرت بنخيلها وخضرتها وجمالها الساحر، فأذكت فيه ظاهرة التجسيم لطغيان أثر المحسوسات أمام عينيه.

هذه واحدةٌ والثانية أنه في مقام مدح الحبيب ﷺ وجد أن الاستعارة المكنية بما فيها من تجسيم وتشخيص هي الأقدرُ على النهوضِ بإبراز بعض صفاته وشمائله ﷺ دون سواها.

* ثانيًا: وتأتي «**الاستعارة التمثيلية**» في المرتبة الثانية بعد المكنية حيث انتشرت في ثنايا القصيدة وفي معظم أبياتها تصويرًا لحالٍ بحالٍ أو هيئةٍ بهيئة، فهيئة

قدوم النبي ﷺ على العرب وهم منغمسون في الضلال تشبه هيئة إشراق الشمس وهي تُزيحُ سُحْبَ الظلام، كما تشبه هيئة الماء الصافي الرقراق الذي فُجِّرَ وسط صخور متراكبة مجدبة قاحلة فبعث فيها الحياة من جديد، وحال الناسُ وهم في تعطشٍ إلى الحبيب ﷺ كحال الظمآن الذي يحتاج الماء ويتطلعُ إليه بلهفةٍ واشتياقٍ، وهيئة الصحابة رضي الله عنهم وهم يَزُجُّونَ بأنفسهم في معمعة الحروب والجهاد في سبيل الله، كهيئة من حملوا أرواحهم في أكفهم استعدادًا للموت في كل وقت، وهيئة بلغاء العرب وهم يحاولون مضاهاة كلامه ﷺ كهيئة من سلك طريقًا وعرًا فضلَّ فيه وتاه، وهيئة الشدائد والأزمات حين تنزل بساحة الإنسان كهيئة السيل المنهمر الغزير الذي يأتي على الأخضر واليابس، وهيئة شعر الشاعر في مدح النبي ﷺ وهو يسيرُ في ربوع الدنيا كهيئة المواكب المزينة الحسان المتجهة لزيارة رسول الله ﷺ وغير ذلك من الاستعارات التمثيلية الرائعة.

والحقُّ أن الاستعارة التمثيلية لها قدرةٌ خارقةٌ وتأثيرٌ عجيبٌ في النفوس ووصولٌ نافذٌ إلى القلوب والعقول، ولذلك أكثر منها الشاعرُ في مقام مدحه لرسول الله ﷺ حيث وجدها أداةً بلاغيةً طيعة للنهوض بمراده، وتصوير معناه بدقةٍ ووضوح وشمول.

* ثالثًا: وبناءً على ما سبق يمكن أن نفسر ندرة «**التشبيه**» عند الشاعر حيث لم يقع له سوى بضع تشبيهات أغلبها من التشبيه البليغ أو الضمني، وذلك لأن المعهود في التشبيه أنه إلحاقٌ للأقل بالأكثر فلم يشأ الشاعرُ أن يكثر منه في مقام مدح الحبيب ﷺ لأنه وجد في الاستعارة غنية عنه ومبالغة في وصفه ﷺ بصفاته الحقيقية، فنأى بنفسه وهو في مقام مدح خير البرية ﷺ أن يسلك طريق التشبيه أو أن يُعوِّلَ عليه كثيرًا، لما فيه – كما قلت – من إلحاقٍ للأقل بالأكثر، والاستعارة أنهض في هذا المقام بإبراز الصورة الحقيقية

التي رآها الشاعرُ في شخصية النبي ﷺ من التشبيه.

* رابعًا: بدتْ بعضُ «**الأساليب الإنشائية**» كالأمر والاستفهام والنداء على استحياء في ثنايا القصيدة وانعدمت أساليبُ التمني والنهي فتعامل معها الشاعرُ بتوازنٍ تام بما يتوافقُ مع أدبه في تجنب الأمر والنهي وغيرهما في مقام مدح الحبيب ﷺ أدبًا وتقديسًا وتعظيمًا لمقامه الرفيع.

* خامسًا: نلحظُ أن الشاعر في مقام حديثه عن «**الدعوة**» في الفكرة الخامسة لم يعوِّل كثيرًا على المجاز، وإنما جاءت الفكرة وهي أحد عشر بيتًا في معظمها مبنية على «الحقيقة» دون المجاز، وذلك لأنه في مقام الحديث عن تقرير حقائق الدعوة المحمدية المباركة وميادينها الرحبة وأخلاقيات الدين، ومن ثم كانت الحقيقة في هذا المقام أبلغ من المجاز، حيث نهضت برسم صورةٍ حقيقية للدعوة المحمدية دون تجوُّزٍ أو مبالغةٍ أو ادعاء.

* سادسًا: بدا عنصرُ «**التناسب**» واضحًا جليًا في القصيدة كلها وبيانُ ذلك من عدة وجوهٍ:

* الأول: ظهر التناسب في **تسلسل الأفكار** وتتابعها بدقةٍ وحسن تخلص، حيث ينتقل الشاعر من فكرةٍ إلى أخرى دون أن يشعر القارئ بخللٍ أو نشاز.

فهو يبدأ قصيدته بوصف إشراق نور رسول الله ﷺ حين أطل على الوجود، ثم يتبعها بوصف كلامه وبيانه، وينتج عن ذلك شوقهُ إلى الحبيب ﷺ وهو ما عبرت عنه الفكرة الثالثة.

وتستثيرُ هذه الذكرى بما فيها من مشاعر رقراقة واشتياق بالغ لرسول الله في نفس

الشاعر أمجاد العروبة التالدة وكيف ضاعت اليوم وهو مضمون الفكرة الرابعة.

ثم تأتي الفكرة الخامسة ليبين فيها أخلاقيات الدين ومعالم الدعوة المحمدية التي إن تمسك بها المسلمون أعادوا مجدهم، ثم يبين حال الصحابة في الفكرة السادسة، وكيف كان مجدهم وعزهم حين تمسكوا بسنة الحبيب ﷺ.

وهنا يُضطرُّ الشاعر لبيان ووصف حال العرب قبل الإسلام ليبرز الفارق بين الحالين وهو ما عبرت عنه الفكرة السابعة، ثم تشتعل جذوة الشوق والحب المحمدي في قلبه فيعود إلى مدح الحبيب ﷺ وهي الفكرة الثامنة، ثم يستغيث برسول الله ﷺ أن يكشف الله الكرب عن الأمة وهي الفكرة التاسعة، ثم يختم القصيدة باعتذار مقنع بالحياء لرسول الله عن تقصيره في وصفه ومدحه ويُهدي إليه قصيدته وسلامه وهو ما عبرت عنه الفكرة العاشرة.

وهكذا تتسلسل الأفكار في انسجام طبعي، وتناسب بلاغي دقيق، وحسن تخلص بديع دون أن يشعر القارئ بفجوةٍ أو خلل، بحيث تُسْلم كل فكرة إلى أختها، وتقتضي السابقةُ اللاحقة، وتنتج الثانية عن الأولى وهكذا في تواؤم وانسجام تام وتوافق ومؤاخاة.

* والثاني من وجوه التناسب يتمثل في «**مراعاة النظير**» حيث بدت في ثنايا معظم الأبيات مما يدل على تكامل الصورة في ذهن الشاعر وتوافقها دون اختلاط بين أودية المعاني والألفاظ وهذا يعكس لنا دقة تفكير الشاعر وحسن تنظيمه من خلال انسجام ألفاظه ومعانيه.

* والوجه الثالث من وجوه التناسب هو **ردُّ نهاية القصيدة إلى مطلعها** حيث بدأها الشاعر بوصف هيئة قدوم النبي ﷺ بهيئة إشراق الشمس وختمها كذلك بقوله:

«عليك سلامُ الله ما ذرَّ شارِقٌ» والشارقُ هو ضوء الشمس، فكان المطلعُ مزينًا بإشراق الشمس بميلاد الحبيب، وكانت النهاية موشاةً بالصلاة والسلام على الحبيب ﷺ ما أشرقت شمسُ الضحى وأضاء النهار.

وبهذا وجدنا القصيدة متناسبةً متوافقةً مطلعًا ونهاية يأخذ بعضها بحجز بعض في توافق وانسجام دون نُبُوٍّ أو قلقٍ أو نشوز، حتى صارت كالحلقة المفرغة لا يُدْرَى أين طرفاها.

* سابعًا: جاءت القصيدة على **بحر الطويل** وتفعيلاته هي: «فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن» في كل شطر، وهو بحر يتميز بطول النفس وتعدد المقاطع وكثرة التفعيلات، وذلك ما أتاح الفرصة لدى الشاعر للبوحِ بكل ما يعتمل في نفسه من مشاعر الحب والشوق لرسول الله ﷺ، ففاضت نغماته مترنمةً في سماء الزمان تشدو أعذب الألحان بنفسٍ طويلٍ تخرجُ معه زفْراتُ الشوقِ والحب المحمدي، وتتدفق على نغماته تلك الأنَّاتُ المكلومة من جراحِ الأمة.

وقد جاء ذلك متوافقًا مع **قافية الهمزة المضمومة** وهي قافية مطلقة استطاع الشاعر من خلالها أن يبُثَّ أشواقه وآماله وأمانيه، وقد سبقتها الألف بمدها المتطاول الذي تسمع معه أنات الشاعر وحنينه إلى استعادة مجد وطنه وأمته واستلهام ذلك كله من الله عز وجل متوسلًا بأريج ذكرى ميلاد رسول الله ﷺ فجاءت بذلك موسيقى القصيدة متناغمة متوافقة في التعبير عن المشاعر الكثيفة المتداخلة التي انطوت عليها نفس الشاعر ليُخرجَ لنا لحنًا موسيقيًا عذبًا يخلع القلوب ويستميل النفوس وتهيم به الأفئدة في حب رسول الله.

ثبت المصادر والمراجع

(١) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني تحقيق السيد محمد رشيد رضا المكتبة التوفيقية.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع للخطيب القزويني تحقيق الدكتور/ عبد القادر حسين مكتبة الآداب.

(٣) بين المكنية والتبعية والمجاز العقلي عرض وتحليل وموازنة د/ بسيوني عبد الفتاح فيُّود مطبعة الحسين الإسلامية الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .

(٤) البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ تحقيق فوزي عطوى – دار مصعب – بيروت – ط أولى ١٩٦٨م.

(٥) تحرير التحبير لابن أبي الإصبع المصري تحقيق الدكتور/ حفني محمد شرف إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٦) التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان د/ محمد محمد أبو موسى مكتبة وهبة – الطبعة الخامسة ٢٠٠٤م.

(٧) الجارم الشاعر/ عصره حياته شعره – أحمد الشايب – مكتبة النهضة المصرية الطبعة الأولى ١٩٦٧م.

(٨) الجارم في عيون الأدباء د/ أحمد علي الجارم – الدار المصرية اللبنانية الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢م.

(٩) الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي تحقيق فخر الدين قباوة – محمد فاضل

نديم – دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

(١٠) دراسات منهجية في علم البديع د/ الشحات محمد أبو ستيت الطبعة الأولى ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

(١١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني تحقيق محمود محمد شاكر مطبعة المدني – الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

(١٢) دلالات التراكيب دراسة بلاغية – د/ محمد محمد أبو موسى – مكتبة وهبة – الطبعة الثانية – ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧م.

(١٣) ديوان علي الجارم – دار الشروق – الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

(١٤) السيرة النبوية لابن هشام – دار الفجر للتراث – الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م.

(١٥) الطب النبوي لابن القيم تحقيق ناصر النجار مكتبة أولاد الشيخ للتراث.

(١٦) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح للشيخ بهاء الدين السبكي تحقيق د/ خليل إبراهيم خليل – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ط أولى ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.

(١٧) القول البديع في علم البديع للشيخ الإمام مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي الحنبلي دراسة وتحقيق الدكتور/ عوض بن معيوض ابن زويد الجميعي – جامعة أم القرى – مكة المكرمة ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

(١٨) لسان العرب لابن منظور – دار الحديث – القاهرة ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.

(١٩) مباحث في وجوه تحسين الكلام أ.د/ رفعت إسماعيل السوداني مطبعة الأمانة

– الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

(٢٠) المجاز العقلي بين عبد القاهر والمتأخرين الأستاذ الدكتور/ الشحات محمد أبو ستيت.

(٢١) مختار القاموس للطاهر أحمد الزواوي – الدار العربية للكتاب – ليبيا ١٣٨٨هـ - ١٩٧٩م

(٢٢) المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم لسعد الدين التفتازاني تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي – دار الكتب العلمية ط أولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

(٢٣) المعجم الوجيز – إصدار مجمع اللغة العربية طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم ١٩٩٩م.

(٢٤) من دقائق البيان النبوي في صيغة التلبية د/ رفعت إسماعيل السوداني مجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود – العدد التاسع عشر ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣م.

(٢٥) النحو الوافي – عباس حسن الناشر: آوند دانش للطباعة والنشر والتوزيع – الطبعة الأولى – ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

فهرس الموضوعات:

مسلسل	الموضـــــوع		الصفحة
١	المقدمة	:	٥٧١
٢	التمهيد ويشتمل على محورين	:	٥٧٣
٣	المحور الأول: التعريف بالشاعر	:	٥٧٣
٤	المحور الثاني: بين يدي القصيدة «أبو الزهراء»	:	٥٧٦
٥	قصيدة «أبو الزهراء» في ذكرى المولد النبوي الكـريم «نـص القصيدة»	:	٥٧٩
٦	قصيدة أبو الزهراء دراسـة بلاغيـة تحليليـة – الفكـرة الأولى إشراق نور رسول الله ﷺ على الدنيا	:	٥٨٣
٧	الفكرة الثانية: وصف كلامه ﷺ وعلمه وحكمته	:	٥٩٥
٨	الفكرة الثالثة: الشوق إلى الحبيب ﷺ	:	٥٩٩
٩	الفكرة الرابعة: مجد العروبة	:	٦٠٥
١٠	الفكرة الخامسة: فحوى دعوة النبي ﷺ	:	٦٠٩
١١	الفكرة السادسة: وصف أصحاب النبي ﷺ	:	٦٢٥
١٢	الفكرة السابعة: صورة العرب قبل مجيء الإسلام	:	٦٣٣
١٣	الفكرة الثامنة: عوْدٌ إلى مدح الحبيب ﷺ	:	٦٤٣
١٤	الفكرة التاسعة: دعاءٌ واستغاثة	:	٦٥٧
١٥	الفكرة العاشرة: إليك أبا الزهراءِ سارت مواكبي	:	٦٦٥

مسلسل	الموضـــــوع		الصفحة
١٦	الخاتمة	:	٦٧١
١٧	أولًا: المصادر والمراجع	:	٦٧٦
١٨	ثانيًا: فهرس الموضوعات	:	٦٧٩